الدِّيوانُ الخامِسُ

جِناحُ جِبْرِيل

بالِ جبريل

نَقَلَهُ مِنَ الأُردِيَّةِ إلَى الفَرنسِيَّةِ نَثرًا
السيد ميرزا سعيد ظفر شاغتي
و السيدة سوزان بوساك

ثُمَّ نَقَلَهُ مِنَ الفَرنسِيَّةِ إلَى العَرَبِيَّةِ نَثرًا
الأستاذ عبد المعين الملوحي

ثُمَّ صاغَهُ بِالعَرَبِيَّةِ شِعرًا
الأستاذ زهير ظاظا

محتوى الديوان

يحتوي هذا الديوان على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : إحدى وستون قطعة تتناول أفكار الشاعر الشائعة في شعره في صور شتَّى ، ورباعيات قليلة .

القسم الثاني : قصائد نظمها في الأندلس حين زارها .

القسم الثالث : قصائد ، ومن عيونها « لينين أمام الله » وهي صورةٌ تمثيليةٌ رائعة ، ويوجد في هذا القسم غير هذه القصيدة ، بعض القصائد منها عن فلسطين ، ومحاورة طويلة بين جلال الدين الرومي ومحمد إقبال .

وقطعٌ كثيرةٌ متفاوتة العناوين ومختلفة المواضيع .

وقد نقله أولًا من الأردوية إلى الفرنسية نثراً ثم نقله من الفرنسية إلى العربية نثراً الأستاذ عبد المُعين الملُّوحي ، ثم صاغه في العربية شعراً الأستاذ زهير ظاظا ، وهو الآن بين أيديكم .

القسم الأول

(١)

دَوَّتْ بِصَرْخَةِ رغبتي أركانَ حضرته الشَّريفهْ
فاسترحمتْهُ العاكفون لفرط جرأتها المخيفَهْ
هي ذيْ ملائكةُ السَّماءِ وحورُها أسرى خيالي
بصري يكدِّر ما يفيْضُ به التجلِّي من جمالِ
إنْ كانتِ اقْتصرتْ على نقشِ المساجدِ همَّتي
لي ساعةٌ تجتاحُ فيها الكونَ حِدَّةُ نظرتي
ماذا فعلتَ ، أبحتَ سرِّي هاهنا ، لكن لماذا ؟!
وأنا هو السرُّ الوحيد لهمْ بِصَدْرِ الكون هذا
أنا ما سكرتُ بما سُقيْتُ فهل بكأسك من ثُمَالهْ
ما مدحةً للبحرِ أنْ يهب النَّدى ظمِئاً حيالهْ

(٢)

لِمَ أهتمُّ بأخطاءِ النجومْ ؟ وأذيبُ القلبَ في هذا العنا
إنْ أصابتْ شأوَها أو أخطأتْ فهوَ شيءٌ ليس يعنيني أنا
ثمَّ هل يمكنني أرثي لها وأنا أطلبُ من يرثي لحالي
لستُ في كونك إلا حفنةً فلماذا يُشْغِلُ العالمُ بالي
هوَ لي أمْ لكَ أنتَ عالمي أم عالمُكْ ؟
كلُّ غيبٍ وشهادهْ ليسَ لي منه نصيبْ
جاهدَ العقلُ جهادهْ هو أم أنتَ المصيبْ
أنا ما قصَّر في بحريك هذين مضائي
رُغْمَ أنِّي ليس لي علمٌ بما خلفَ الفَضاء
كيفَ إبليسُ الرَّجيم قال : لا ، للكون هذا

ولمـــــاذا (أنـــــا حتـــــى الآن لا أدري لمـــــاذا) !!
ليـــت شعـــري أنـــت حقّـــاً أمْ أنـــا مـــوضـــعُ ســـرّهْ
أنـــا بـــالنسبـــة لـــي طـــوّحْـــتُ فـــي خيـــري وشـــرّه
يـــا أبـــا القـــاســـم يـــا جبـــريـــلُ يـــاقـــرآنُ إنّـــي[1]
حلـــفُ سيـــرٍ فـــإليكـــم أيُّهـــا السّـــادة عنّـــي
أيُّنـــا يشـــرحُ مـــا فـــي القـــول هـــذا مـــن حـــلاوهْ
أنـــا أم أنـــت الـــذي يَمْنَحُـــه هـــذي الطّـــلاوهْ
عطـــرُك اللهـــمَّ فـــي الإنســـان مـــا زالَ ولـــونُـــكْ
وبـــإشـــراقـــة هـــذا النّجـــمِ قـــد أشـــرقَ كـــونُـــكْ
أنـــا مِـــنْ آدم فـــرعٌ وهـــو مـــنْ صُنْـــعِ يَـــدَيْـــك
هـــل أســـاءت هـــذه الـــرّحلـــة فـــي شـــيءٍ إليـــك

* * *

قـــد تـــألّفـــتَ فـــزدْهُ ألَقـــاً هـــذا العِـــذارْ
وأدمْ لـــي حكمتـــي فـــي أســـره ليـــلَ نهـــارْ
خـــذ إلـــى أســـركَ قلبـــي فَلَقَـــدْ طـــابَ التهـــالُـــكْ
أنـــا لا أرغـــبُ أن يُكْشـــفَ حبّـــي وجمـــالُـــك
أنـــت كـــاللُّجـــة لا ســـاحـــلَ لـــك وأنـــا الجـــدولُ لا لُجّـــة لـــي[2]
قـــلْ لهـــا تـــأخـــذنـــي فـــي حضنهـــا وأغثنـــي مـــرةً مـــنْ ســـاحلـــي

---

(١) يريد الشاعر أن يقول : إنَّ القلب السليم هو الّذي لا يحول بينه وبين الله رسولٌ ولا ملك ، إنَّه حتى القرآن الكريم ممكن أن لا يزيد الظالمين إلّا خساراً .

(٢) المقصود ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] أنت أقرب إلي من حبل الوريد وأنا لا أرى شيئاً ، يا للفضيحة أنا كالجدول ، أيّاً كان ذلك الذي سيمر على ضفافه فإنه من غير أن يبذل كبير جهدٍ سيميّز بين الحصى الخضراء والزرقاء .
أما أنت فكاللجّة ، حتى السماء إذا نظرت إليها فلن تجد أكثر من مرآةٍ تعكس زرقتها .

إنْ أكُنْ قوقعةً فارغةً ... فمن المسؤول عن هذا السُّلوك ؟
أنت منْ يجعل منْ هذا الحصى ... جوهراً يُلْهبُ تيجان الملوك
ربِّ ما قَدَّرت لي رَجْعَ الربيعْ ... فاحفظ اللهمَّ هذا النَّفَسا
فعسى تروي به قُبَّرةٌ ... ذلك الغصنَ الذي قد يَبِسا
مع ما أرهقني عبءُ الحياه ... مع ما أخرجتني من جنَّتكْ
سترى كم توبةٍ في صفحتي ... وأرى كم رحمةٍ في صفحتك
أنا قد يَحْمرُّ وجهي خجلاً ... حين تبدو صُحُفي بينَ يديك
فرجائي عندما تقرؤها ... أنَّني أنظرُ يا ربي إليك
أعرفُ الحبَّ الذي خَبَّأتَه ... عن قلوبٍ سُمْتَها من ضَرَمِك
أنت لو تجعله قطباً لها ... لم تطُفْ إلا به في حَرَمِكَ
ارحم الكَلَّ الضعيفْ ... ضاعَ في حقلٍ وبيدرْ
بدلاً من ذا الرَّغيفْ ... أعطهِ قوَّة حيدرْ

(٤)

سواء أهزَّتْكَ أم لم تهزَّك ... شكوايَ أطلبُ تُصْغي إلَيْ
أنا وقحٌ لست أسأل عدلاً ... فيا طالما العدلُ يبغي عليْ
سماءٌ وأرضٌ وريحٌ غضابْ ... وكلٌّ على قبضةٍ من ترابْ
فهل لك في الخلقِ منْ فرحةٍ ... وهل هذه رحمةٌ أم عذابْ
أنا العطرُ خيمتُه وردةٌ ... تقاومُ ريحاً ببستانكَ
وبالرغم من ضعْف أسبابها ... إلى الآن تزهو بألوانكَ
وبالرَّغم من أنَّني في السَّماء ... وضيعٌ وأكثرُ من مزدرىٰ
رضيتُ ببؤسي الذي اخترته ... وأنشأتُ مملكةً في العَرا
خلا الروض ما فيه من أجْمَةٍ ... فتاهتْ عليه المها والظِّباءْ
إذا كان صيادُنا ماهراً ... فليس يصيدُ بهذا العراءْ
إلى عالمِ الحُبِّ لا تستطيعُ وصولاً ملائكةٌ في السَّماءْ

ورايتُـــه ليـــس تُعطـــى ســـوى ... لمـــن لا يهـــابـــون سَفْـــكَ الـــدِّمـــاءْ
ومـــن أيـــنَ تعـــرفُ معنـــى الـــوِصـــال ... إذا لـــم تنـــلْ مـــن ضِـــرامِ الهجـــرْ
ســـألتـــكَ تمـــلأُ روحَ الشَّبـــاب ... بـــأنّـــاتِ إقبـــال هـــذا الفجـــرْ
وتـــؤتـــي الشَّـــواهيـــن عـــون الجنـــاح ... لتنـــزلَ منـــزلهـــا فـــي القِمَـــمْ
وأمنيّـــة العُمْـــر هـــذي الجـــراح ... تقسمُهـــا بيـــنَ كـــلِّ الأمـــمْ

(٥)

نمـــطُ العَيْـــشِ هـــاهنـــا ... أفقـــدَ الحـــبَّ بهجتَـــهْ
أدركِ الحـــبَّ أخمـــدتْ ... نفحـــةُ المـــوتِ جـــذوتَـــهْ
فـــي لهيـــب انتظـــاره ... بـــدَّدَ العمـــرُ حُـــرْقتـــهْ
ضـــاع عمـــري بلحظـــةٍ ... أخَـــذَتْ منـــه زَهْـــرَتَـــهْ
تـــربـــتْ مـــن شـــرارةٍ ... قـــاومـــتْ منـــه شُعْلَتَـــهْ
هـــبْ لـــه خُلْـــدَ روحـــه ... وأدِمْ فيـــه سَخْطَتَـــه
وانظـــرِ الأرضَ عنـــدمـــا ... يهـــبُ الأرضَ نظـــرتَـــهْ

***

(٦)

أنـــا أرجـــو ألا يقـــوم رمـــادي ... أبـــداً هـــاهنـــا بتقـــويـــم قلبـــي
ورجـــائـــي ألَّا يكـــون عـــذابـــي ... مثـــل يـــومـــي غـــداً أمـــامَـــك ربـــي
ثـــمَّ أرجـــو ألَّا أخـــورَ وأبكـــي ... وتـــرى الحـــورُ لـــوعتـــي ونحيبـــي
وعســـى هـــذه المحـــافـــلُ ألَّا ... يـــأخـــذوا أيَّ فكـــرةٍ عـــن لهيبـــي
ربَّمـــا يـــذكـــرُ المســـافـــر يـــومـــاً ... كـــلَّ وخـــزٍ رآه عَبْـــرَ الطَّـــريـــقِ
فـــرجـــائـــي ألَّا يصيـــر حنينـــاً ... ذلـــكَ الـــوخـــزُ فـــي فـــؤادي الـــرَّقيـــقِ
جعـــلَ الحـــبُّ مـــن فـــؤاديَ بحـــراً ... لـــم أجـــدْ ســـاحـــلاً لـــه فـــي حيـــاتـــي
أنـــا أرجـــو ألَّا أفـــاجـــأ يـــومـــاً ... وأرى ســـاحـــلـــي شعـــوري بـــذاتـــي
ورجـــائـــي ألا أكـــون ببحثـــي ... وهـــو بحـــثٌ بغيـــر لـــونٍ ومنهـــجْ

كالذي ضاعَ عمرهُ خلف ليلى يقتفي إثرَ هودجٍ بَعْدَ هودج[1]

آدمُ الأرض في صعودٍ غريب ولهذا النُّجوم طرّاً تمورُ

ربما صار للسموات بدراً ربما عاد نجمُه المكسورُ

مولاي سرُّك ماضٍ في عوالمه من عالمِ الطَّير حتَّى عالم السَّمَك

ولست غيرَ صراخِ الفَجْر أملكهُ أنا بكونك كالعُصْفورِ في الشَّرَك

---

(١) في الأصل ص٢٦٧ حرفياً (ملاحقة الهودج) .

إشارة إلى أسطورة : كان امرؤ القيس وهو شاعر عربي في القرن الأول قبل الهجرة . ذو شهرة واسعة وقع في حبِّ ليلى ؟ عندما رآها فكان يلحق بكل بعير يحمل هودجاً على أمل أن تكون فيه ، والعبارة تعني (كل ملاحقة نصر على تحقيق الغاية التي وضعها الإنسان لنفسه) .

وفي تأويلات أخرى أنَّ المجنون أرسل رسالة إلى حبيبته ليلى ثم نفذ صبره فلحق بحامل الرسالة .

قال الأستاذ الملّوحي : ونلاحظ في هذا التعليق جملة من الهفوات فحبيبة امرؤ القيس التي ذكر امرؤ القيس هودجها ليست ليلى في قوله :

ولما دخلت الخدر خدر عنيزة . . . إلخ

قلت في ديوان الأسرار ص٧٠ يعلق عزّام على البيت :

صدر عصري ما يقلب يؤهل نوح قيس حين يخلو المحمل

قال : يبكي لخلوّ عصره من القلب كما يبكي المجنون لخلوّ المحمل من ليلى وقد يكون من ذلك قول المجنون :

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحيّ غير نسائها

وفي البداية والنهاية حوادث سنة ٦٣١هـ : كان السَّهروردي صاحب العوارف مرةً في مجلسه فكان يكرر هذا البيت :

ما في الصحاب أخو وجد تطارحه إلا محب له في الركب محبوب

فقام شاب وكان في المجلس فأنشده :

كأنما يوسف في كل راحلة له وفي كل بيت منه يعقوب

فصاح الشيخ ونزل عن المنبر وقصد الشاب فلم يجده ووجد مكانه حفرةً فيها دم كثير من كثرة ما كان يفحص برجليه عند إنشاد الشيخ البيت .

(٧)

أيُّها السَّاقي لقد قامَ الغفاة ... ثورةٌ في كلِّ شيءٍ في الحياة
ذرَّةٌ لم تَخْلُ من عاصفةٍ ... أيُّها السَّاقي خذ الكأس وهات
نُهِبَتْ خيراتُنا أجمعها ... لم نَعُدْ ننفعُ شيئاً لِلْعباد
أيُّ عينٍ قد أصابت ركبنا ... جَعَلَتْهُ هائماً في كلِّ واد
فتنةٌ في القَلْبِ قد أودتْ بنا ... نحن أبناءُ أطبَّاءِ القلوب
أين في ودياننا الماءُ الذي ... قبلُ أحْيَيْنَا به روحَ الشُّعوب
لِمَ لا يَنْطَلِقُ التَّوقُ الذي ... يُوقدُ الجذوةَ في صَدْرِ الحرمْ
حُجُبٌ غطَّتْ عيونَ المؤمنين ... أن ترى زمزمَ قُرْبَ الملتزمْ
رغمَ أنَّ النَّهر والبستانَ في ... تبريزَ بستانٌ ونهرْ
لم يزالا لم تَقُمْ جوقةُ رومي منذ دهرْ
قل لها إن شئتَ هذا النهرَ والبستان قومي
لو ترى إذْ رَقَصَتْ تبريز في حضرةِ رومي
أنا لا أيأس من حقلٍ ذوىٰ ... أيُّها السَّاقي إذا الماءُ هطلْ
فأعدْ رونقه إنْ لم يكن ... وابلاً يا أيُّها السَّاقي فَطَلْ
أيُّها السَّاقي هُمُ قد منحوا ... لذوي الكدية أسرارَ الملوكْ
أنا لو أُعطيتُ دنيا أبرويز ... لم أكنْ أرغبُ عن هذا السلوكْ
أنا لا أخلو بما أنعمته من موهبه ... ليس من طغرل أو سنجار في بيتي هبه
أنا بالفطرةِ أصبحتُ رقيباً للوجودْ ... رغمَ هذا ما لجمشيدٍ على قلبي قيودْ

* * *

(٨)

ألا يا أيُّها السَّاقي ... من الكاساتِ هاتيك
لعلِّي أنْ أرى يوماً ... مكاني منْ معانيك
لماذا أغْلَقَتْ أبوابَها ... الحاناتُ في الهند

مضت هدراً ثلاثُ قرونٍ بَعْدَ سقوطِ سرهندِ[1]

مضت هدراً ثلاثُ قرون ... في حانِ هَدَمناها
ولم تتحمَّل النُّدمان ... بُعدَك أيها السَّاقي
ذوت غزليتي لا شيء ... واللاَّشيء حرَّمه
علينا بائع اللاَّهوت ... بَعْدَك أيُّها السَّاقي
قلوبُ أسودنا في الغاب قد هَجَرَتْ تحقُّقَها
مع الصُّوفيِّ والملاَّ عبيدٌ أيُّها السَّاقي
منِ انتزعَ الحقيقةَ من مهنَّد حبَّنا هذا
وما أبقى لها إلا ... قراباً أيُّها السَّاقي
كلامُ القَلْبِ حينَ يكونُ حيَّاً خمرُنا الباقي
وإلا كان للأرواح موتاً أيُّها السَّاقي
أنا ليلٌ بلا قمرٍ ... وما لي هاهنا قَدْرُ
ألا يا أيُّها السَّاقي ... بكأسك ذلك البدرُ
بكأسك سرُّ ذيَّاك السُّكون وهذه الحركة
فأينَ الماءُ ، ماذا كان ... ردُّ الخضرِ للسَّمكةْ

(٩)

ساقيَّ ما حصل الذي أبغيه ... الذَّات عالمها متى نلغيه
القلبُ منشغلٌ بما عاطيته ... عمَّن يغنيه ومنْ يَسْقيه
ذهبتْ بجوقته كؤوسُك كلُّها ... لم تبقِ إلا الصَّمْتَ في واديه

---

(١) إشارة إلى المصلح الكبير الإمام الرّباني مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي المتوفى سنة ١٠٣٤هـ ، ويذكره الشاعر في مناسبات عديدة في دواوينه المختلفة ، انظر للاطلاع على حياته وجهوده الإصلاحية الجزء الثالث من سلسلة العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي لكتاب « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » طبع دار ابن كثير بدمشق .

مـا مثلـه متسـوِّلٌ فـي حـانـةٍ بـالـلامبـالاة التـي تـرويـه[1]
لـو جـاء مـاءُ الخضـرِ كسـر كـأسَـهُ ورثـى لـذي كلـفٍ بـه يـأتيـه

* * *

سـاقـيَّ والكـأس الصغيـرة لـم تعـد تكفـي هلـمَّ لـه بمـا يكفيـه
فـرغـتْ دِنـانُ القَـوْم فـي أديـارهـم وأتيـتُ أسـألـك الـذي تخفيـه
بصـري علـى طمـحٍ وقلبـي جامـحٌ فـاستـرْ إذا أحببـتَ مـا أنـويـه
غـادرتُ لـؤلـؤتـي الَّتـي أغـرقتَهـا فـي البحـر تنعـمُ مـنْ ضيـائـك فيـه

* * *

نظـراتُ هـذا الشِّعـر تَسْحَـرُ لبَّنـا والحسـنُ لا يحتـاجُ للتنـويـه
تضفـي علـى لـونِ الشقـائـق رونقـاً وتـزيـدُهـا ألقـاً بمـا تضفيـه

* * *

مـرةً تبصـرُ المحـبَّ شـريـداً مـرةً تبصـرُ الملـوكَ لـديـه
مـرةً يقحـمُ النِّـزال عـريّـاً مـرةً يحشـدُ الـدروع عليـه

(١٠)

أحـرقـتْ رغبتـي بـلاهـةَ سُـوقٍ فـأتَتْنـي ملـوكُـه تشتـريهـا
لسـتُ أبتـاعُ سكـرةَ الملـك غُبْنـاً بعبـوديتـي الَّتـي أنـا فيهـا
لا يليـقُ الـوجـود هـذا بحـرٌ سـرُّه يشتكـي وجـودك ذاكـا
لـم يجـدْ هـاهنـا مـنَ الموتِ بـدَّاً أو مفـرّاً مـن الحيـاة هنـاك
لـذَّةُ العِشْـق مـن فـراقٍ وهجـرٍ فـاتَّـق اللهَ أنْ تقـولَ لمـاذا
مـا تـردَّدتُ أو تشـردتُ يـومـاً أو تسكَّعـتُ فـي طـريـقٍ كهـذا
لا يمَـلُّ الشَّـاهيـن مـا يـرتجيـه بيـن غـابٍ يـرودُهـا وجبـالِ

---

(١) انظر : « حانة القلندرية في (منطق الطير) للعطار ص٣٧١ ، طبع دار الأندلس » .

ويـرى فـي اتخـاذه العُـشَّ عـاراً ... نـاعـمٌ بـالُـه شـديـدُ المحـالِ
مـن تُـرى يسَّـر الـذَّبيـح لبـرٍّ ... بعـدمـا كـان تلَّـه للجبيـنِ
كثـرةُ الـدَّرسِ أمْ نبـاهـةُ نفـسٍ ... إنَّ فـي ذاك آيـةً للضَّنيـنِ
سلـوة الشـرق حيـن يجـرح شعـري ... وضـريحـي لكـلِّ طلعـةِ حـرٍّ
جئتُ (آلوند)[1] مرةً بعد أخرى ... فغبـارُ الطـريـق يعـرفُ سـرِّي
ليـس يحتـاجُ زخـرفَ القـول معنىً ... كيفمـا قلتَـه سبيـتَ الغـوانـي
مـا استعـارتْ يـدُ الحـديقـةِ لـونـاً ... حيـنَ صـاغَـتْ شقـائـقَ النُّعمـان

***

هـو ذا الحـبُّ مـرةً إلْـفَ وادٍ ... مـرةً وحـدَه يغنِّـي الجبـالا
مـرةً بـالغيـاب يَشْقَـى وأُخـرى ... يمـلأ القلـبَ غبطـةً ووصـالا
طـالمـا ألهـبَ المحـاريـبَ وَجْـداً ... طـالمـا أصْلَـح المنـابـرَ بـالا
مثلـه مثـلُ الإمـامِ علـيّ ... أخـذ العلـم كلَّـه والقِتـالا

(١١)

ألا يتـذكَّـرُ يـومَ اللقـاءْ ... وتـاريـخَ لحظتِـه الحـاسمـهْ
ومـا قـدَّس الحـبُّ مـن بقعـةٍ ... وأسيـافَ نظـرتـه القـاسمـهْ
ذوى الحـبُّ فـي أنفـس العـاشقيـن ... ولـم يبـقَ منـه سـوى وسـوسـهْ
وصـرنـا إلـى زمـنٍ مـالـه ... إلـهٌ سـوى صنـمِ المـدرسـهْ
يقـولـون أستـاذنـا آزرٌ ... ولـلآن مـا عـرفـوا رسمَـهُ
هُـمْ وثنيُّـون لا يعـرفـونَ مـن فـنِّ آزرَ إلّا اسمَـهُ
نَعَـمْ هـمْ إلـى الآنَ لـم يعـرفـوا ... رشـاقـةَ فطـرتـه البـادئـهْ

---

(١) آلوند : جبل في إيران جنوبي غرب طهران وهو بمثابة (رضوى) عند شعراء العرب ومن هنا اختار عزّام أن يستبدل آلوند برضوى في ترجماته ومن الجدير بالذكر أنَّ إقبال نظم جناح جبريل على غرار رباعيات (بابا طاهر الهمداني) الذي يكثر في شعره ذكر جبل آلوند وميمند .

تطـوَّح معبـدُهـم فـي الـرِّيـاح ... ولـم تبـق زاويـةٌ هـادئـهْ
تعجَّبـت مـن عـالـمٍ هكـذا ... فـلا هُـوَ عُـشٌّ ولا هُـوْ قَفَـصْ
هـب الكـرْمَ رونقَـه يـا كـريـم ... فلـم يبـقَ فـي الـدَّنِّ إلا غصـصْ
وحـانـاتُ إيـران قـد أجـدبـتْ ... وهـذي التـي فجَّـرت عينَنَـا
يظنُّـون شعـري لأجـلِ الـرَّبيـع ... ومـا علمـوا مـا الـذي بيننـا
دمـي وغبـاري همـا الجـوهـرانِ اللَّـذانِ يجيشـان فيمـا تشيـدْ
وأنـت سفكـتَ عليهـا دَمـي ... وخلـدُ التـألُّـق أجـرُ الشهيـد
بفضلـك لا أشتكـي الأصـدقـاء ... ولا أشتكـي جَـوْرَ هـذا الـزمـانْ
وثـوبُ الحيـاة التـي خضتُهـا ... بفضلِـكَ أخلعُـه فـي أمـانْ
فهبنـي بسـرِّك ذوقَ الفَنـاء ... كمـا فنـيَ السَّـابقـون الأوَلْ
فـلا الحـزنُ ثبَّـط مـنْ عـزمهـم ... ولا الخـوفُ أقْعَـدَهُـم فـي الـدُّولْ
نعـمْ ، عقـدَ الفكـرِ أطلقْتهـا ... وخلَّصتنـي مـن شيـاطينـهِ
متـى الحـبُّ تمنحنـي سـرَّه ... وتجعلنـي مـن مجـانينـهِ

(١٢)

يَهَـبُ الشَّقيـق بـلا حسـابٍ خمـره ... فترى الكؤوس على مدى البُستان
عجبـاً مـن الصُّـوفـيِّ يتـرك زُهْـدَه ... لأقـلِّ بـارقـةٍ بهـذا الحـانِ
الحـبُّ يجعـلُ حيـثُ مـدَّ بِسَـاطَـهُ ... مـن طعمـةِ المتسـوِّليـن ملـوكـا
يـرثـون شـرفـة أبـرويـز بمكـرِهـم ... فتظـنُّ كـان كمثلهـم صُعلـوكـا
هـذي النُّجـومُ عتيقـةٌ كسمـائهـا ... هـل مـن نجـومٍ غيـرِهـا وسمـاءِ
يـا ليـتَ شعـري والقيـامـةُ أزلقـتْ ... مـا حظُّهـا مـن هـذه الضـوضـاءِ
مـولاي عينـك لـو أدرتَ لحـاظَهـا ... عنِّـي لحلَّ الـويـل بـي فـي لحظتـي
أنـا غبطتـي عنـد الصبـاح تَنَهُّـدي ... حـاشـاكَ تحـرمنـي وداعـةَ غبطتـي
لـم لسـتَ مُهْتمَّـاً بهـذا كلِّـه ؟ ... ولـو اهتممـتَ جعلـت منـه يقينـا
عينـاكَ لامعتـان إلا أنَّهـا ... دلَّـتْ علـى عـدم اكتـراثـك فينـا

أنا لا يلائمني ربيعٌ طافحٌ ... بالزَّهر لم يُدْرِكْ مدى أحزاني
ويظنُّ من خُيَلائه عن فرحةٍ ... غنَّى له العصفور في البُستانِ
قالت لي الحمقى تبدَّد شملُنا ... فكنِ ابنَ عصرك أيها المجنونُ[1]
فأجبتُهم إنْ كان غيرَ مناسبٍ ... فمن المناسب حربُنا المكنونُ
حقّاً أبو الحسن المحقِّقُ قال لي : ... الرُّوح لا تفنى إذا فني الجسد
أتظن تبقى الشَّمس مشرقةً إذا ... هي أنْكَرَتْ هذا الشُّعاعَ إلى الأبد[2]

(١٣)

عدمُ اكتراثِك لم يزلْ وشقائي ... لم أستفدْ شيئاً بكلِّ غِنائي
ربَّاه أينَ أنا وأنتَ وإنْ يكنْ ... هذا فضاؤُك أنتَ أينَ فضائي ؟
ولكَ الوجودُ جميعُه أمْ لي أنا ... والكونُ سِحْرُكَ أمْ تموُّجُ ذاتي
ما خضتُ إلا وقعةً نشبتْ به ... في ساحها أنْفَقْتُ كلَّ حياتي
ما خضتُ طوال العمر إلا وقعةً ... نَشَبَتْ على لغزٍ من الألغازِ
بحرارةِ الرُّوميِّ كنتُ أخوضها ... حيناً وحيناً باكتئابِ الرَّازي
ما أفلحَتْ تلكَ العُقابُ وقد نَمَتْ ... وترعرعتْ بين النُّسور الكاسرهْ
فَلِصَقْرِنا الملكيِّ سرٌّ واحدٌ ... لم تدره تلك العُقَابُ الحائرهْ
لِلْحُبِّ أغنيةٌ وما لِغِنائها ... لغةٌ ، ولا تحتاجُ للألفاظِ
هي إن تكنْ أو لمْ تكنْ عربيةً ... فالسرُّ كلُّ السرِّ في الألحاظِ

---

(١) شاهد من سعدي شيرازي وهو حرفاً : انسجم مع الزمن .

(٢) في الأصل (أيمكن أن تظل الشمس مشرقةً لو أنكرت أشعتها) وفي الهامش أنَّ الشمس هي الذات الكونية ، وأشعتها هي الذوات الفردية .
قلت : وقريب من هذا .

رباه ذاتك في سماء حياتنا ... شمس أشعتها ذوات الناس

وقريب من هذا قول شوقي في معارضته لعينيَّة ابن سينا :

يا نفس مثل الشمس أنت أشعّة ... في عامرٍ وأشعة في بلقع
فإذا طوى الله النهار تراجعتْ ... شتى الأشعة والتقت في المرجعِ

ما بين دروشةٍ ولا ملكيةٍ ... فرقٌ إذا صلحتْ أمورُ الذَّاتِ
كلتاهُما تغزو الوجودَ فهذه ... بيدِ الجنودِ وتلكَ بالنَّظراتِ
البعضُ قد تركَ الرِّكابَ لغيرها ... والبعضُ يكتُمُ جرحَهُ ويعاني
لو أتقنَ الحادي مقاماً واحداً ... لم يرغبوا عنْهُ لحادٍ ثانِ
الفكرُ حتَّى بالفضيلةِ لم يَعُدْ ... يرضى بقولِ القلبِ في تفسيرها
والقلبُ حتَّى بالتَّجارب كافرٌ ... ويردُّ قولَ الفِكْرِ في تقريرها
فإلى متى هذا النفورُ يقودنا ... وإلى متى تجتاحُني أنفاسي
اللهُ يعلمُ ما رأت نفسي الَّتي ... أقسو عليها رحمةً بالنَّاسِ

(١٤)

أنا لا يبدو مجالي هاهنا ... يتعدَّى أبداً ظِلَّ القمَرْ
وأرى اللُّعبةَ من ماءٍ وطينْ ... ليس في كوني سوى هذا السَّمَرْ
أيُّ عينٍ هاهنا ما افتتنتْ ... عندما مزَّقتُ أطرافَ الرداءْ
تربتْ من أعينٍ كانتْ ترى ... بقعةً زرقاءَ في هذي السَّماء
كمْ لنا قافلةٌ مرهقةٌ ... طوَّحتْ خَلْفَ تلافيفِ الأثيرْ
إنَّ هذا المشتري والنَّيِّرينْ ... بعضُ من صاحبتُ في هذا المسير
هذه الأرضُ وهاتيكَ السَّماء ... في رحابِ السرِّ لا تنتهيانْ
قفزةٌ واحدةٌ منْ عاشِقٍ ... تجعلُ الأسرارَ في جُبَّة كانْ
أنتَ إنْ حاولتَ كتمانَ الهوى ... فَضَحَتْهُ صرختي عِنْدَ الصَّباح
صرخةُ الحبِّ التي تملكني ... لم تدعْ للحبِّ سراً لا يُباح
رغمَ ما تطلقُه منْ حيرةٍ ... صرخةُ التائه منْ غير دليلْ
هي عندي وكما أعرِفُها ... دعوةٌ تُعْرِبُ عن قُرْبِ الرَّحيلْ

***

إنْ تكنْ ربَّاً فيعني عندنا ... صرتَ تهتمُّ بأرضٍ وسماء
وجَعٌ في الرأس لا يتركُه ... لهناءٍ في صباحٍ ومساء

أستميحُ العُذْرَ إمَّا إنْ تكنْ مَحْضَ إنسانٍ على هذي الوِهادْ
فهو لا يعني (تماماً) عندَنا وَجَعاً في الرَّأسِ ، لكنْ في الفؤادْ

(١٥)

واضحٌ قولي ، وفِكْري نيِّرٌ رغمَ أنِّي حافلٌ بالحِيَرِ
طينتي هذي الَّتي أملِكُها كلُّ ما أعرفه عن قدري
ليسَ عندي غيرَ شيءٍ واحدٍ أنا أم أنت الذي يَمْلكُه ؟
أنت لو مَكَّنْتَني منْ صونه عن زماني لمْ أكنْ أهْتِكُه
كيف لا تُعرِبُ عنِّي صرختي كيف لا تملأ أرجاءَ السَّماءْ
أنا غَنَّيْتُ كما علمتني أنا أم أنت الذي صاغَ الغِناء ؟!
خطأٌ إن كان في تصميمنا ما الذي يدعو إلى تكراره
ذلك الإنسانُ ما قيمتُه ومتى يخرج من فخَّاره
رغم أنَّ الغَرْبَ ما علَّمني من جميع العلم غير التُّرَّهاتْ
فأنا يؤسفني (الملاَّ) الذي صار للإسلامِ عاراً في الحياة

* * *

أيها المسلم[1] يا نورَ السَّماء كيف لا تشرقُ في أرضِ البشرْ
أنت سلطانُ الليالي لا كما قالتِ الحمقى أسيرٌ للقَدَرْ
إنَّ أصنامي التي في مَعْبَدِي مثلُها تلكَ التي في معبدِكْ
لم تحطمْها يدٌ غيرُ يدي فترفَّعْ عن يدٍ غير يدك
ذلك الأعمى الذي تَقْصِدُه ما له علمٌ بما في قلبك
هو لا يبصرُ حتَّى نَفْسَه وتراه تحفةً من ربِّك

---

(١) في ترجمة النثر للأستاذ الملُّوحي « يا أنت ! وقد اختلف النقاد في تحديد المنادى » ص٩٨ .

(١٦)

ربَّاه هذا السُّوق ينبضُ روعةً ... ويروجُ حتى في ابتياع الدَّاء
بالرَّغم من هذا فأرخصُ سلعةٍ ... عند الشراء مواهبُ العلماء
ملكَ المرابون البلادَ جميعها ... وتقامروا حتَّى على الأديانِ
والناسُ يعتقدون رغم شقائهم ... للإنكليز بمطلق السُّلطانِ
لم تمنحِ العلماءَ حتى قشَّةً ... وجَعَلْتَهُم أخلى العبادِ وفاضا
والإنكليز وهم عبادٌ مثلُنا ... يُعْطون أبناء الحمير رياضا
ملئت كنائِسُهم بكلِّ ملذَّةٍ ... فهنا اللحومُ وهاهنا الكاساتُ
هل في مساجدنا بكلِّ بلادِنا ... إلا المواعظُ تلك والصلواتُ[1]
قرآنُك الحقُّ المبين وإنْ يكن ... قاسى كلامَ مفسِّريه وعانى
لو يرغبون برأيهم أن يجعلوا القرآن (بازند المجوس)[2] لكانَ
فردوسك اللهمَّ لم يره هنا ... أحدٌ وأنتَ هو السَّميعُ المُبْصرُ
الإنكليز بلادُهم فردوسُهم ... والمسلمون إلى سمائِك تنظرُ
ما زال فكري في سمائِكَ حائماً ... فاسجنْه في فلكٍ من الأفلاكِ
تأبى عليَّ ملائكيَّةُ فطرتي ... أنْ أستمرَّ بهذه الأشْراكِ
لك ذلكَ الدَّرويش جرَّح نفسه ... حاشا تكون لقلبه جهتانِ
لا في سمرقندٍ ولا دلهي ولا ... في أصبهانَ له مقامٌ ثانِ
أنا لستُ مِسْكيناً ولستُ مراوغاً ... والحقُّ : أرفضُ غيرَ نفسي شاهدا
غضبت عليَّ الأصدقاء جميعُهم ... والحقُّ لا يبقي صديقاً واحدا
لم أستطع أبداً أسمِّي سُمَّهم ... حلوى وأعرفُ أنَّه قتَّالُ

---

(١) المقصود اللادنيوية التي مُني بها المسلمون واللَّادينية التي انتهى إليها الغرب ، فليس في كنائسه إلا دنيا ، وليس في دنيا المسلمين إلا مساجد .

(٢) البازند : شرح ترجمة معدلة لكتاب زرادشت (رأفيستا) ويُشير الشاعر إلى عناصر في هذا الدين مثل الثنوية وارتكاب المحارم (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(دومنـد) عنـدي لا يسمَّى صخـرةً ... وعليـه مـن قُلـلِ الجِبـال جِبـالُ
لمـا قُـذِفْـتُ لنـارِ نمـرودٍ أتـى ... جبـريـلُ يسـألنـي فَلَـمْ أتكلـمِ
وصمتُّ لمَّا قال : هل لك حاجةٌ ... أنـا مسلـمٌ أنـا لسـتُ حبـة شَيلـمِ
ربَّـاه ! إنـي أتْعَبْتَنـي حيـرتـي ... مـا عـاد يمكـن أن أغـضَّ عيـونـي
الحسـنُ مـن حـولـي يشيـع وصـالُـه ... والحُبُّ في صدري يـذيـعُ فتـونـي
سكـرانُ مغتبـطُ السَّجيّـة منتـشٍ ... بـالفقـر فـرحـانُ الفـؤاد بهيجُـهُ
يـا ليـت شعـري كيـفَ يُحْـرَمُ بـرعـمٌ ... مـن رغبـةٍ فـي الابتسـام تهيجُـهُ
لـم يستطـعْ إقبـالُ يكتـمُ جـرحـه ... حتَّـى أمـام الله قـام وقـالا
من سوف يُسْكِتُ ذلك الوَقِحَ الذي ... لـم يبـقِ للمتجمِّليـن جمـالا

***

القسم الثاني

علق إقبال على هذه القصيدة بقوله :

تفضَّل جلالة السلطان نادر شاه ـ الذي استشهد بعد ذلك ـ بدعوتي فاغتنمتُ زيارة ضريح الفيلسوف السنائي الغزنوي في شهر (تشرين الثاني) عام ١٩٣٣م وقد نظمتُ هذه التأمُّلات على نمط قصيدةٍ مشهورةٍ لهذا الفيلسوف[١] ذكرى لهذا اليوم السعيد :

« إنَّنا نسير على خُطى السنائي والعطَّار »[٢] .

***

---

(١) القصيدة نمط من الشعر العربي اقتبسه الفرس ، ويتَّجه إلى مدح شخصية ما ، أو إلى تجسيد عقيدة عند أهل التصوُّف كالسنائي (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(٢) الشطر الثاني من بيت لمولانا جلال الدين الرومي .

لـم تَقْـوَ صحـراءُ الطبيعـة هـذه ... لمـا جننتُ على احتواء جنوني
لـولا الجنونُ أساء في تقديرها ... لـم آتهـا بمخـاوفـي وظُنـونـي
بـالـذَّات يمكـنُ أن نكسِّر سِحْرَ مـا ... بعثتـهُ مـن عطـرٍ ومـن تَلْـويـن
لا أنـتَ تملـكُ فـي الحيـاةِ ولا أنـا ... أسـرارَ وحـدانيـة التَّكـويـن !
صُوَرُ الوجودِ تموجُ نُصْبَ عيوننا ... فـامـلأ عيـونَك مـا مـلأتُ عيـوني
لـو يستطيـعُ البحـر يتـركُ مـوجـه ... ألقـى بمـوجِ الظـنِّ بحـرُ يقينـي
بيـن المحقِّـق والفقيـه خصـومـةٌ ... عَصَفَـتْ بمِنْبَـرِ ذلـكَ المسكيـنِ
لمَّـا رُثـيَ الحـلاَّج فـوق صليبـه ... كسَـر الصَّليـبَ تعصُّبـاً للـدِّيـنِ
مـا بَيـنَ مِنْبَـرِ ذا وبيـن صليـبِ ذا ... لـم ألـق غيـر خصـومـةٍ مـنْ طِيْـنِ

***

رجـلُ البصيـرةِ لا يـذوقُ هـوانـا ... سِيَّـان عبـداً كـانَ أو سلطـانـا
يختـالُ والـدِّرع الـوحيـدةُ زهـدُه ... لا يشتكـي زمنـاً ولا شيطـانـا
جبريلُ دعني في الحياة وسكرتي ... لا أنـتَ أستـاذي ولا أنـا عَبْـدُكَـا
أنا إن تَبِعْتُ خُطاك خنتُ خلافتي ... شتَّانَ وَجْدي في السَّماء ووَجْدُكَا
سَفْـكُ الـدِّمـاء رسـالـةٌ مـذمـومـةٌ ... لكنَّهـا فـي الأرض أقـدسُ فـرضِ
أهـلُ السَّمـاء صـلاحُهـم فـي أنَّهـم ... يستغفـرون بهـا لمـن فـي الأرضِ
كـم ذا ذهبـتُ مُشَـرِّقـاً ومُغَـرِّبـاً ... أتفحَّـصُ الحـانـاتِ فـي الآفـاقِ
فهنـا كـؤوسٌ لا مـذاقَ لخمـرهـا ... وهنـاك خمـرٌ مـا لهـا مـنْ سـاقِ
طـورانُ مـن إيـرانَ تـأخـذُ ثـأرهـا ... وبـلاطُ قيصـر مـن دمـائهمـا نـدي
ذهـب الـدراويـش الـذيـن عهـدتَهـم ... لا يـأبهـون لصـارمٍ ومهنَّـد
وبقيـتُ فـي حـرمٍ يتـاجـر شيخـه ... بـوشـاحِ فـاطمـةٍ ومصحـفِ أحمـدِ
لمـا اشتكـى لله إسـرافيـلُ مـن ... شكـواي قـال ـ بحـرقـةٍ وتنهُّـدِ ـ :
هـذا الفتـى قبـل الأوان يـريـد أن ... ينهـي الـوجـود بشِعْـره المتمـرِّدِ
فـأجابـه صـوتٌ : أليـس أشـدَّ مـن ... هـذي النِّهـايـة مـا تـرى يـا سيـدي

إحرامُ أهلِ الصِّين داخلَ سدِّها ورقودُ مكَّةَ في جوارِ محمَّد

***

مِنْ (لا إله) لنا كأسٌ يمنِّينا
وكؤوس (إلا الله) كُسرَتْ بأيدينا
الكأسُ طافحةٌ بالنَّفي في الأرواح
والكأسُ في الإثبات تبكي ذهاب الرَّاح
العازفُ الموهوبُ بالعَزْفِ أخرسنا
نبكي بلا صوتٍ ونخونُ أنفسنا
عجباً لأوربَّة بالنَّهر تُغرينا
وبذاتِ لجَّته ضاعتْ معانينا
تُخفي بهدأتها تيَّارَها الماحي
عصفتْ فما تركتْ وَكْراً لتِمْساحِ
رأيُ العبيد بها لا نطمئنُّ له
وتقرِّرُ الأحرارُ الرأي مجمله
لا شيءَ يُقْنِعُنا إلا اجتهادٌ وفي
يأتي بلؤلؤةٍ من ذلك الصَّدَفِ
ذاكَ الزُّجاج إذا عَجَنْتُه في الكِير
فأنا أسوِّيه صخراً بإكسيري
لي في الجهاد يدٌ فرعونُ يخشاها
بيضاءُ ما مُدَّت إلَّا لمولاها
أتظنُّ أوربَّة أنْ ينتهي نَفَسي
أو تنطفي ناري في قشِّها اليَبِسِ
ناري وقد أذكتْ ما اخْضَرَّ من قصبي
لا شيءَ يمنعُها من ذلك الحَطَبِ

متفـــــاهـــــمٌ قلبـــــي ... لا يعـــــرفُ اليـــــأســـــا
الحـــــبُّ علَّمـــــه ... أنْ يُـــــرْغِـــــم النَّفســـــا
مـــــن عُشْـــــرِ عـــــالمـــــه ... يستخـــــرجُ اليُسْـــــرا
لا قَصْـــــرَ قيصـــــرِه ... يـــــرجـــــو ولا كِسْـــــرى
متعلِّـــــقٌ أبـــــداً ... بـــــركـــــابِ سيِّـــــدِهِ
لا غَـــــزْوَ لـــــلأقمـــــارْ ... يَسْقُطْـــــنَ فـــــي يـــــده
هـــــو سيِّـــــد الأشيـــــاء ... هـــــو خـــــاتـــــمُ الـــــرُّسُـــــلِ
هـــــو شُعْلـــــةُ السَّـــــاري ... فـــــي هـــــذه السُّبـــــلِ
هـــــو مـــــركـــــبٌ مـــــنْ نـــــور ... يمشـــــي أمـــــام الـــــرَّكْـــــبْ
أعطـــــى جنـــــون الطُّـــــور ... لغبـــــار هـــــذا الـــــدَّرْبِ
هـــــو أولُ المَيْـــــدانِ ... هـــــو آخـــــر الـــــدَّرْبِ
فـــــي أعيـــــنِ السَّكـــــرانِ ... مـــــنْ نَشْـــــوَةِ الحـــــبِّ
هـــــو رحمـــــةُ القُـــــرآن ... للنَّـــــاس أعطـــــاهـــــا
هـــــو سيِّـــــدي يـــــاسيـــــن ... هـــــو مـــــالكـــــي طـــــه
أقلعـــــتُ عـــــن غَـــــوْصـــــي ... وتـــــركـــــتُ أحْمـــــالا
لـــــولا (سنـــــائـــــي) مـــــا ... أقْلَعْـــــتُ إجـــــلالا
لـــــولاه عـــــنْ بحـــــري ... لـــــولاه مـــــا حِلْـــــتُ
فـــــلآلـــــيءٌ فيـــــه ... أضعـــــافُ مـــــا قلـــــتُ

(٢)

الشـاعـرُ الفـرحُ الحـزيـنُ معـاً أنـا ... حـذر الحكيـمُ أشُـوبـه بجنـونـهِ
أوتيـتُ ملكَهمـا بـوجـهِ معـذِّبـي ... ورميـتُ بـالاثنيـن حـول عيـونـه
والزُّهد منْ شِيَم الملوك فإن تجِدْ ... ذا الفقـر فيـه فَمِـنْ عظيـم فتـونِـهِ

زهدُ الملوكِ كأبرويز محبةً ... ألقى ممالكه إلى شيرينهِ[1]
وكهدأةِ الأسدِ المقيم كما يُرى ... ما بين مِخْلَبِه وبين عرينهِ
لا قعدةُ الصُّوفيِّ مُنْهدِمَ القُوى ... مِنْ فقد دُنياه وضيعةِ دينِهِ
ما قول سادتِنا الدَّراويش الَّتي ... سمعت لآهات ابنها وأنينِهِ
هو من رجالِ اللهِ إلا أنَّه ... سيثيرُ عاصفةَ النُّشور بطِينهِ
رجلٌ تنيرُ طريقهُ شطحاتُهُ ... حيٌّ كمثلِ البَرْقِ بين شؤونه
ملكٌ أماراتُ الجنونِ بوجهه ... والعَبْدُ يفضحُه غباءُ سكونه
تيمورُ أو جنكيزُ كانَ كِلاهما ... ملكاً وخدش الله فوق جبينه
شعري بفارسَ والعراقِ محيِّرٌ ... طربوا له وتحيَّروا لشجونه
الكافرُ الهنديُّ[2] يذبحُ دونما ... سيفٍ ولا رمحٍ فَمَنْ لجنونه

(٣)

روعةُ السرِّ التي أعطيتُها ... والَّتي مكَّنني منها الجنونُ
إنَّ أنفاسي الَّتي أحدو بها ... أُخِذَتْ مِنْ صَدْرِ جبريلَ الأمينِ
لستُ آتي النَّجم كي أسألَه ... عن مصيري هاهنا كيف يكونُ
هو لا يعرف مِنْ أينَ أتى ... في رحابِ الكونِ منبوذٌ مَهِيْنُ
ما حياةُ الناس إلا سكرةٌ ... وهي في اليقظة أو في الحُلْمِ
لا تُضِعْ عمرك في تفسيرها ... كثرةُ الحيرة موتُ الهِمَمِ

* * *

فرحي تفجَّر مِنْ ... قدمي إلى رأسي

---

(١) يمكن أن يكون في هذا إشارة إلى قصر « دربند عجم » الّذي بناه أبرويز لمعشوقته شيرين رمزاً لحبّه كالملك المغولي شاهجهان الذي بنى « تاج محل » في القرن الخامس عشر الميلادي رمزاً لحبّه لزوجته « ممتاز محل » .

(٢) انظر من تلقَّب من الشعراء بالكفري (مكتوبات الإمام الربّاني الجزء الأول ، ص٣٢) .

والقـــــومُ تطلـــــب أنْ أنْسَـــــلَّ مِـــــنْ نفســـــي
مـــــا ســـــرُّ قلبـــــي ؟ آهْ لضميـــــره العـــــذبِ
وسمـــــوٌّ نظـــــرتـــــه فـــــي سكـــــرة الحـــــبِّ
لا أرتضـــــي بـــــدلًا عـــــن قلبـــــي المجنـــــونْ
بكنـــــوزِ قـــــارونٍ وعلـــــومِ أفـــــلاطـــــونْ
معـــــراجُ سيِّـــــدنـــــا علـــــمٌ عظيـــــمُ الشـــــانْ
بـــــدتِ السَّمـــــاء بـــــه فـــــي عـــــالـــــمِ الإنســـــان
لابـــــدَّ يُـــــذْهِشُنـــــا مـــــا كـــــان يُحْتَمَـــــلُ
فـــــوجـــــودنـــــا هـــــذا مـــــا زالَ يَكْتَمـــــلُ
فـــــي كـــــلِّ آونـــــةٍ نُصْغـــــي إلـــــى إعـــــلان
يلغـــــي خـــــرافـــــاتٍ مـــــن ســـــالـــــف الأزمـــــان
ألهتـــــك أوربَّـــــة بـــــالسِّحـــــر عـــــن ذاتـــــك
إيَّـــــاك أن تـــــرضـــــى عـــــن كَسْـــــرِ مـــــرآتـــــك
لا تتـــــرك الـــــرُّومـــــي[1] ولهيـــــبَ حـــــرقتـــــه
فـــــدواؤك الشَّـــــافـــــي فـــــي نـــــارِ نَظْـــــرَتِـــــهِ

---

(١) يرى إقبال أنَّ المراحل المختلفة للخبرات الداخلية ترتبط بأحوال مختلفة من الوعي الذاتي ، وبالتالي فالخبرات الداخلية التي نجدها في الأدب الديني العالمي مهما كانت مغلفة في مفاهيم سيكيولوجية متقادمة فإنها لا ترتكز على وهم ، وإنما تحمل قيمةً معرفيةً كاملة .

والظاهر : أنَّ العلم الحديث ما زال لا يملك الأدوات التي يستطيع بمقتضاها أن يحلِّل بدرجةٍ مناسبة مضمون هذه الخبرات الصوفية .

ويريد إقبال بتمجيده للرومي أن يعرب عن سخطه على الفلسفة المجردة داعياً إلى الفلسفة التجريبية التي تجلت عند الرُّومي في مبدأ العشق العيني المشار إليه في قول الرومي : ليس الحرام تنظر إلى وجه الحبيب ، وإنما الحرام أن لا يكون لك حبيب تنظر إليه « انظر مجلة فكر وفن عدد ٣٢ فصل إقبال والرومي » .

أو مـــا اسْتَعَـــدْتَ بـــه ... مـــا ضـــاعَ مِـــنْ نَفَسِـــك
إيـــاك كنـــت تـــرى ... جيحـــون فـــي كـــأسـك

(٤)

ألا يـــا عـــالمـــاً فـــي المـــاء ... بيـــن التُّـــرب والأهـــواء
ظـــاهـــر ذلـــك الســـرِّ ... أنـــا أبـــديـــهِ أم أنـــت
وهـــذا الليـــلُ فـــي حـــزنٍ ... وحـــرقتُـــه وحيـــرتُـــه
ولحـــنُ مـــؤذِّن الفَجْـــرِ ... أنـــا أعطيـــه أم أنـــت
نشـــاط الـــدَّهـــر يطلـــبُ مَـــنْ ... أنـــا أم أنـــت يثقِلُـــه
ويَحْمـــلُ عبئـــه يجـــري ... أنـــا أغـــريـــه أم أنـــت
غبـــارٌ نحـــن يـــا أعمـــىٰ ... ولكنِّـــي أعيـــي ذاتـــي
فحقـــلُ الكـــون لا أدري ... أنـــا أسْقِيـــه أم أنـــت

* * *

(٥)

كمـــا أنـــتَ لا تكتـــرثْ للسِّنيـــن ... وَسِـرْ فـي طـريقـكَ نحـو الأمـام
كمـــا أنـــت لا تُصْـــغِ للقـــائليـــن ... فلســـتَ لنجـــدٍ ومصـــرٍ وشـــام
تعـــالـــى جهـــادُ النَّـــزيـــه الغَيـــور ... تعـــالـــى يكـــونُ لنيـــل الحُطـــام
وجـــائـــزةُ الحـــرِّ غيـــرُ الخمـــور ... وغيـــرُ الغـــوانـــي وغيـــرُ الخِيـــام
علـــى الطُعْـــمِ يسقـــطُ مـــن لا يطيـــر ... ومـــن لا يحلِّـــق فـــوقَ الغَمـــام
إذا سلـــب الغـــربُ قلـــب الغَـــريـــر ... فســـرُّك يغـــزو مصيـــرَ الأنـــام
عصـــاك تُصَـــدِّع صُـــمَّ الجبـــال ... وتعـــرف سينـــاءُ صِـــدقَ الكـــلام
فـــدعْ تـــرفَ الغمْـــدِ مـــا للهـــلالِ ... علـــى فخـــره غيـــرُ شكـــلِ الحســـام
إمـــامُـــك يفقـــدُ معنـــى الخشـــوع ... ويَنْقُـــضُ نجـــواك عـــزُّ القيـــام
أمثلـــك يـــرضـــى بهـــذا الخنـــوع ... وتلـــك الصَّـــلاة وذاكَ الإمـــام

* * *

نسيبُ جبريلَ معصومٌ من الرِّيبِ وحكمةُ الذَّوق تعلو حكمةَ الكُتُبِ
كم كانَ مِنْ سفنٍ للقومِ أغرقها سلَّمُ التَّصوفِ واللاّهوتِ والأدبِ
كنْ ثاقبَ العين في قلب الأسود لها جرحٌ فما لثُغَاء الشاة من عَتَبِ
جسَّ الطبيبُ بقلبي ما أكابِدُه فقال : ويحك ما تخفيه منْ طلب
تطلعاتُك لا طاقاتُ تحملها لكن (لكَ الحقُّ) لا تيأس من السَّببِ
وما يُسمَّى صفاءَ الرُّوح أعرفه وليس هٰذ الذي في قلبك اللَّجِبِ
هذا الدمُ القِرْمزيُّ اللونِ (نَضْرَتُه) تدلُّ أنَّك لم تشربْ شرابَ غبي

(٧)

لشقائق النعمان قنديلٌ على الآكام يشرقُ من جديد[١]
ويحثُّني العصفورُ في البستان ، يرغب أن أجدِّد في النَّشيد
الحورُ صفٌّ بعد صفٌّ والزهورُ مبعثرة
ضجَّ الجميعُ ولا أظنُّ جميعَ هذا ثرثرة

---

(١) يبدو أنَّ القصيدة ستكون غامضةً إذا تُركت بغير تعليق للرُّموز التي طفحت بها والتي تعطيك فكرةً بشرحها عن طبيعة شعر إقبال وما فيه من رمزية مغرقة ، وتستطيع أن تأخذ فكرةً واضحةً عن ذلك إذا تأملت ما هُمش به جناح جبريل ـ الأصل ـ من اختلاف النقاد في فهم كثير من شعر إقبال .
يشير إقبال في هذه القصيدة إلى أنَّ الحضارة قد دخلت في طورٍ جديد ، وهي بحاجة إلى ديانة تناسبها ، وهذه الناس الذاهبة هنا وهناك تبحث عن شيء ، وهاهي الذوات بدأت تستقل ، كلُّ واحد معتصمٌ بذاته وهذا سيجعل تلك الديانة أكثر جمالاً ؛ لأنَّ الديانة الحقة إذا نزلت على الفطرة الحرة كانت كمثل لؤلؤة النَّدى على الزهرة الحمراء . سيتألق البستان ، وغاية الفطرة هذه هي الجمال كله ، ولا يمكن لهؤلاء الذين أصبحت نفوسهم كالمدن في تعقيدها إزاء صفاء الفطرة لا يمكن لهم أن يفهموا كلَّ هذا ؛ لأن هذه الزحمة في نفوسهم ستحول بينهم وبين تجلّي القصة في ثوبها الجديد ، ويختم إقبال رموزه بإشارات لا تحتاج إلى تعليق .

الثَّـــوب أصْفـــرُ أصفـــرُ والثَّـــــــوب أزرقُ أزرقُ
والقِـــرْمـــزيَّـــةُ قِـــرْمِـــزيَّـــةٌ والتفـــــرُّدُ مُطْلـــــقُ
ألقـــى نسيـــمُ الصُّبـــح لـــؤلـــؤةً علـــى تـــاج الـــزُّهـــور
والشَّمْـــسُ نـــوَّرت النَّـــدى لتـــزيـــد مـــن ألـــقِ العُطـــور
مـــن هـــذه الغـــابـــاتِ قـــامَ الحســـنُ يبـــدأ رقصتَـــه
فـــي هـــذه الغـــابـــاتِ لا فـــي المُـــدْنِ نفهـــم قصَّتَـــهْ
اغْـــرَقْ بـــذاتـــك مـــا استطعَـــتَ فشـــطُّ بحـــرك فـــي حيـــاتـــك
إنْ كـــان يـــزعجُـــك انتســـابـــي فـــانتســـبْ لجمـــال ذاتِـــك
مـــا عـــالـــمُ القَلْـــبِ ؟ المحبـــةُ والمـــروءةُ والحمـــاســـهْ
مـــاعـــالـــم الجســـدِ ؟ التِّجـــارة والتملُّـــق والسيـــاســـهْ
يـــا أنـــتَ أنـــتَ إذا وَجَـــدْتَ غنـــى الفـــؤاد فَلَـــنْ تُـــرَاع
أمـــا غنـــى الأجســـاد فهـــو وكـــلُّ مـــا فيـــه ضَيـــاع
وإذا وَجَـــدْتَ القلـــبَ ثـــم أضعتـــه فـــالحـــقُّ أنَّـــك مـــا وَجـــدتَـــهْ
والحـــقُّ : أنَّـــك ضـــائـــعُ الخُطـــواتِ مـــن وهـــم تُصَـــدِّق مـــا ظننتَـــه
لـــلإنكليـــز سيـــادةٌ فـــي غيـــر قلـــبِ المسلـــمِ
مـــا فيـــه تـــأويـــلاتُ شيـــخٍ أو مســـائـــلُ بـــرهمـــي
لـــو كنـــتَ تَسْمَـــعُ للقلنـــدر حيـــنَ قـــال وحيـــنَ جلَّلنـــي حيـــاء
لمـــا انحنيـــتَ أمـــام غيـــرك صـــرتَ مـــنْ جســـدٍ ومـــن قَلْـــبٍ هبـــاء

(٨)

دَمُ المسلـــمِ النُّـــورُ فـــي دَرْبِـــه ومـــوهبـــةُ السِّحـــر فـــي قلبـــه
ويعتـــرفُ العصـــرُ أنَّ الجمـــالَ صَبَـــا وتَـــرَعْـــرَعَ فـــي شعبـــه
ولـــولا مـــدارسُ هـــذي الشُّيـــوخ وأحبـــارُ ســـوءٍ ورهبـــانُهـــا
لـــروَّى المـــدينـــةَ ممـــا ارتـــواه وأورقَ بـــالحـــبِّ بستـــانُهـــا
صغـــارُ الشَّـــواهيـــن مـــا ذنبهـــا هُـــمُ علَّمـــوهـــا عنـــاقَ الغبـــارْ

هُمُ قتلوا القَلْبَ في صَدْرِها هُمُ أبدلوها بهذا الشَّنارْ
ترى النشأ يملأ وجه الطريق بروحاتِ نِسرٍ وغدواتِ بازْ
ومفتي المدينةِ وادٍ سحيق يضُجُّ بمصطلحاتِ الحجازْ
أنا لستُ أفهمُ هذي الكؤوس ويؤسفني مثلُ هذا اللَّجاج
ومن كان يحسنُ نَحْتَ الصُّخور ترفَّع عن أن يَصُوغ الزُّجاج
يقولون إقبالُ ماذا يريدُ ومن أين جاء بهذا السُّلوكْ
سألتُ الدَّراويشَ عن سِرِّها وألقيتُه في وجوهِ الملوك

(٩)

هو الحبُّ يمضي حِيالَ الحياة يغنِّي نشيدة ألحانِهِ
ويرسِلُها في وجوه التُّراب ويمنحُها بعض ألوانِهِ
يُغَلْغِل في الأرض أوتارَه ويملأ هيكلَ إنسانِهِ
كما يَتَغَلْغَلُ لين النَّسيم بسيقانِ زهر وقفطانِهِ
إذا المرءُ لمْ يَدْرِ ما ربُّهُ تحوَّل عبداً لسلطانِهِ
ومنْ طلَبَ اللهَ لا مِنْ سواه وأدركَ قيمةَ عِرْفانه
تحوَّل (دارا) له طالباً و(جمشيدُ) من بعضِ نُدْمَانِه
يجاهدُ للقلب حرُّ الجهاد وللبطن صعلوكُ أوطانه
وذاك يحصِّل سرَّ الخلود وهذا يموتُ بميدانه
تمعَّن بقلبك واستَنْبِهِ ولا تسألِ الشَّيخ عن شانه
خلا حَرَمُ الله من أهله فكنْ أنت جَذْوةَ أركانه

* * *

(١٠)

القَلْبُ يَنْقُصُه الهوى والعَيْنُ يَنْقُصها الصَّفاء
منْ لمْ يُغامِرْ مثلما غامرتُ تدهشه السَّماء
ما سرُّ طينتِك الَّتي ذوقُ التَّجلِّي نقشُها

أتَضِيعُ في وهم الحياة وأنت قلبك عرشَها
حاشا لأوروبة الَّتي جفَّت دموعُ عيونها
حاشا تنيرُ بقطرةٍ مُلِئَتْ بليلِ ظنونها
هل يعرفُ الصوفيُّ والملاَّ حقيقةَ جذبتي
ضنُّوا بكلِّ ثيابهم وأنا أمزِّق جبَّتي
ما مزَّقا يوماً ولا حشواً ولا طرفَ الرِّداء
فاعجبْ لصُوفيٍّ وملاًّ يلجئونك للرِّياء
حتَّى متى يا طينتي تتوسلينَ إلى النُّجوم[1]
كانتْ نجوماً ثمَّ ضاعتْ خلفَ أوهامِ العلوم
إمَّا أكفُّ أنا وإمَّا أن تكفَّ عن الوجودِ
هذا الصِّراعُ الباردُ الواهي طريقٌ للجحودِ
ما دُمْتُ صاعقةً ففي الصَّحراء أعملُ والجبال
عُشْبٌ وقشٌّ يابسٌ لا يستحقَّان انفعالي
الكونُ ميزانٌ يكونُ لذي الشَّجاعة والجلادِ
للمؤمنِ الحقِّ المخاطر بالحياة لما ينادي
حاشا لمن (لولاك)[2] في يده يرى شيئاً منيعا
ما مؤمناً منْ لمْ يكنْ للكونِ علته جميعا

***

(١١)

ألفُ خوفٍ ولا قيامُ لساني بحديثٍ مما يُكَذِّب قلبي
عندما قلت للقلندر[3] هذا قال : أحسَنْتَ إنَّ ذلك دأبي

---

(١) ربما كان المقصود هنا : « بأيهم اقتديتم . . . » (الحديث) .
(٢) لولاك لما خلقت الأفلاك .
(٣) القلندرية : طريقة صوفية يمكن أن تكون امتداداً للملامتية ، ويشير السهروردي في =

= عوارفه (٢٣٢) إلى عدة فروق بينهما ، وعنه ينقل المقريزي ذلك بتصرف في الخطط (٢/ ٤٣٢) .

وترتبط نشأتها في التراث الإسلامي بمجيء جمال الدين الساوي إلى دمشق بعد سقوط ساوة في أيدي التتار حوالي عام ٦١٧هـ .

انظر الوافي للصفدي (٤/ ٢٩٢) . النعيمي (٢/ ٢٠٩) معجم البلدان (ساوة) ، تلبيس إبليس (٣٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤١٧) . (الكواكب السائرة ٣/ ١٩١ ترجمة علي بن صدقة) . (وفيه ٤٨/١ ترجمة محمد الجارحي) . (وخلاصة الأثر ٣/ ٣٨٩ محمد بن أحمد العبادي) وانظر التذكرة التيمورية وعلى هامش لطف السمر (١/ ٣٥٣). والعبر (٥/ ١٤١) والبداية والنهاية حوادث سنة ٧٦١هـ ورحلة ابن بطوطة (٣٣) ونلفت النظر إلى وجود جملة من المعتقدات الزرادشتية ترتبط ببحيرة ساوة ، وفي الحديث (خمدت نار فارس وغارت بحيرة ساوة) وهذا ما يفسر وجود بقايا زرادشتية في الأدب القلندري .

وينبغي أن يمحَّص رأي دائرة المعارف الإسلامية « النسخة الفرنسية » من أنَّ قلندر يوسف الإسباني هو مؤسس القلندرية وعنها نقل فروخ في (التصوف في الإسلام) ص٢٦ وكذا حسين مجيب المصري في ترجمته غير المشهورة لأرمغان حجاز (١٥٦) ومحقق لطف السمر (٣٥٣) أو عن قاموس المنجد .

وربما كانت أخبار قلندر يوسف هذا شفوية غير مكتوبة ، أو أنها بمعنى آخر تقليدية .

كما أننا غير مطمئنين إلى صحة كون (قلندر نامه) من تأليف شيخ الإسلام عبد الله بن محمد الهروي كما تقطع بذلك دائرة المعارف الإسلامية . « النسخة الإنكليزية » والمرجح أن يكون من تأليف هاتفي (عبد الله بن محمد الهروي) صاحب تيمورنامه و« شاه نامه » الذي ألفه للملوك الصفوية ، وهو ابن أخت جامي صاحب النفحات وقد توفي سنة ٩٢٧هـ .

والمشهور أنه عن طريق رباعيات بابا طاهر الهمداني / التي يرى فيها النقاد مباينةً قوية لرباعيات الخيام / انتشرت نظرات القلندرية للحياة .

والتداخلات التي تحيط بحياة بابا طاهر لها أهميتها في تفسير كثير مما نسب للقلندرية . فثمن ذلك اتهامهم بالإيمان بالتناسخ وكون بابا طاهر أحد أولياء (أهل الحق) التناسخية كما في دائرة المعارف مادة أهل الحق ، ومن ذلك أنَّ الدركزيني الهمداني شيخ الساوي كان من بلدة بابا طاهر كما في الوافي للصفدي . =

الـــذي يَحْشُـــد الجمـــوعَ بحـــانِ ظُـرْف ســاقٍ مُنَشَّـأٌ فـي الخـلاعـهْ
خَـــورُ القلـــبِ لا يـــداويـــهِ رازي رغـمَ مـا فـي كـلامـه مـنْ بـراعـهْ
المـــريـــدُ البسيـــطُ وهـــو نقـــيٌّ يُـرفِـقُ التَّـوبـةَ النَّصـوح بكـاء
اســـأل الله نعمـــةً مثـــل هـــذي للشُّيـــوخ الَّتـــي تمـــوت ريـــاء
ربّ مـــا زال نجـــلُ آدم هـــذا إسـرَ وهـمٍ وشعـوذاتٍ قـديمـهْ
صنـمُ النَّفـس تحـت إبطيـه يُضْفـي حُلَّـة النَّصـر فـوق شـرٍّ هـزيمـهْ
لسـتُ فـي صـرختـي أبـرِّىء نفسـي فـاحتـراف الإيمـان روحُ الشَّجـاعـه
وأنـا ، كـلُّ تهنـآتـي (لمـلاّ) يـدَّعـي حملَ مثـلِ هـذه القنـاعـهْ
مـؤمـنٌ لا يكـون للحـبِّ أهـلاً مـؤمـنٌ فـي الجحـود جـدُّ عـريـقِ
وإذا الكُفـرُ صـادفَ الحـبَّ يـومـاً قـاده الحـبُّ مـرغمـاً لطـريقـي

(١٢)

أو لا تـــزال مســـافـــراً تســـري وتَغُـــرُّك الـــدُّنيـــا بمـــا فيهـــا
والعصـــرِ إنَّ القـــوم فـــي خُسْـــرِ وســـلِ الطبيعـــةَ عـــن فيـــافيهـــا

ومن ذلك أن الخاكسارية وهم من مقدسي بابا طاهر يطلقون اسم القلندر على من هو في المرتبة الخامسة من مراتبهم السبعة كما في كتاب (الشبك ص٥٣) ويلاحظ أن ما فيه من وصف للقلندر (ص٥٤) ترجمة حرفية لما في البرهان القاطع (ج٢ ص٣٠٤) .

ولا يكاد يختلف حديث إقبال عن القلندر وحديث بابا طاهر عن نفسه ، قارن قصيدة الشاهين (ص٣٥٧) بهذه القصيدة التي يصف بها بابا طاهر نفسه كما في دائرة المعارف ، يقول : إنه قلندر ينتقل من مكان إلى آخر ، لا يغطي رأسه سقف .

ويتوسَّد في نومه وسادة من الحجر ، ويزعجه القلق الروحاني باستمرار ، تمزّق قلبه الكآبة والهم ولا يزهر في قلبه إلا زهرة الأسى وحدها ، حتى الربيع بما فيه من حسن وسحر يخلفه شقياً بائساً .

يقول : عيناي وقلبي لا ينصرفان بسهولة عن التعلُّق بأسباب هذه الحياة الدنيا وقلبي الثائر يشتعل بين ضلوعي ولا يريحني لحظة واحدة ، أأنت أسد أيها القلب أم نمر من نمور ، أنت الذي لا تكف عن حربي وكفاحي ، سأسفك دمك أيها القلب إذا وقعت في يدي ، لأرى من أي لون أنت .

يمشي المنافقُ في نقائصه ... لا زاهداً حقّاً ولا ملكا
وترى الموفَّقَ رغم محنته ... مَلِكاً يُبَجَّل أينما سلكا
كفُّ المنافق لا تساعده ... في حمل سيفٍ يَبْعَثُ الفرقا
والمؤمن الصدِّيق محنتُه ... قدرٌ يشوبُ سيوفَه ألَقا
ما للمنافقِ مِنْ إرادته ... حرٌّ ولا مِنْ صَوْلةِ القَدَرِ
يستقبلُ الأقدارَ مرتبكاً ... مُتَعلِّلاً بالعِلْمِ والنَّظَرِ
المسلم المغوار حجَّتُنا ... نرمي بها الجهلاء بالدِّين
في نفسه أقدارُ أمَّتِه ... متستِّرٌ في زيِّ مسكين
حتى تحسَّ بما أكابده ... مزَّقْتُ أسراري إلى الأبدِ
وجذورُ غفلتك التي سَكِرَتْ ... لا أستطيع بلوغَها بيدي

(١٣)

الحورُ في الغرب سكرُ القلبِ والبَصَرِ ... فاهدأ قليلاً وكنْ منها على حَذَرِ
بحرُ الوجود تعالى أن نحيط به ... وبعضُ ما فيه موجُ الشَّمْسِ والقمر
حاشا لقيثارةٍ مهما بَذَلْتَ لها ... أن تستطيع احتواءَ اللَّحنِ والوتر
صوفيُّنا خلفَ لاهوتيٍّ أديرةٍ ... يريد يستبدلُ البخُّور بالحَجَرِ
والمنبرُ اليوم والمحرابُ قد فرغا ... من صيحةِ الحقِّ أو من صرخةِ السَّحر
أين الأذانُ الذيْ كانت تميد له ... روحُ الجبال وأينَ الصَّعْق في الصُّور
طوَّفتُ في أمَّةِ الصحراء أسألها ... فإذ بها أمةُ الصَّحراء في خَوَرِ
رأيتُهم في سجودٍ لا اتجاه له ... وماله في وجوهِ القومِ من أثر
مهلاً فقرطبة الحمراء ما بَرِحَتْ ... تلوحُ بين دخانِ الغَرْبِ بالشَّرَر
حماسةُ الشِّعر هذا من شبيبتها ... تفوحُ رَغْمَ حروبِ الكُفْرِ والأشَرِ

* * *

(١٤)

يَقِظٌ كما الفاروقُ يقظةُ قلبِه ... يقظٌ كمِثْل المرتضى في حربِهِ

حجرُ الفلاسفة المجرَّب مثله ... يستخرجُ الذَّهبَ الدَّفين بتربِهِ
أيقظْ فؤادَك إنَّ عُمْرَكَ ضائعٌ ... ما دام قلبُك غارقاً في حجبِهِ
أنا ، لا عصاي ولا عصاك تُفيده ... إنْ لم يذقْ ذوقَ الكليم بضربِهِ
ستكون في الصَّحراء أحمقَ باحثٍ ... إنْ كانَ لم يَصْحَبْك مُرْهَفُ شَمَّكَا
وغزالُنا التَّتريُّ لستَ تصيدُه ... مهما نصبتَ له حِبَالةَ وهمكا[1]
ربَّاهُ أينَ يلوذُ مركبُك الَّذي ... عصفتْ بطيبةِ نفسه الرُّهبانُ
أيروحُ في طلبِ الشواطىءِ مخطئاً ... والبحرُ بحرُك أنت يا رحمنُ
لولا الرِّياء بذلتُ خالصَ زفرتي ... للمُسْلِم المطروحِ حول منارِهِ
كُتِمَتْ مخافةَ برهميٍّ لم يزلْ ... يخفي شرارته بمعبد نارِهِ
فإلى متى صمتي وحولي أمَّةٌ ... يلهو بها السُّلطان والدَّرويش
هذا بِسُبْحَتِهِ وذاك بِسَيْفِه ... وكلاهما مما تكدّ يعيش
سمحتْ حضارتُنا الحديثةُ هذه ... للنَّاس يتَّجهون كيف أرادوا
مَكَرَتْ بعالمهم فظاهرُ أمرها ... حرّيةٌ والواقعُ استعبادُ
مولاي خُذْ بيدي ليثربَ إنَّه ... بترابِ يثربك المطهَّرِ مرهمي
ضيَّعْتُ معرفتي وإيماني على ... شكِّ الفِرَنج ووسوساتِ البرهمي

***

(١٥)

عيونُ الذَّات دافقةٌ ... خلال الدرِّ والصَّدف
بغيرِ تصنُّعٍ منها ... ولا دَجَلٍ ولا صَلَفِ
إذا كانتْ لها أسلوبها ... في الهَجْر والشَّوقِ
فذلكَ منْ تواضعها ... وذلك منتهى الذَّوقِ

---

(١) إشارة إلى قول مولانا جلال الدين الرومي : سير مرحلة على هدي رائحة المسك خيرٌ من سير مرحلة في اقتفاء الأثر والدوران حوله .

أتطلبُ جيفةَ الغربانِ هاتيكَ الشَّواهينُ
إذا أخْفَتْ مخالبها فأعينُها سكاكينُ
متى الأوتار تلهبُها بلوعةِ ذلكَ الحبِّ
فَنَغْمةُ صورِ إسرافيلَ لا تفتنُ في القلبِ
أتيتُ الغربَ لم أعْبَأْ بسكرةِ دلِّ ساقيها
كرامُ النَّاس لا تشجو على مرأى أعاديها
غزاةُ العصر ليس لها على عشَّاقنا عونُ
وما من عاشقٍ إلا له من حبِّه كونُ
غيابٌ كالحضورِ به من الهيجان أدومُهُ
لعلَّ الهجر للجُرحِ الذي في الوَصْل مرهمُه
ولولا ذاك عانيتُ ما عانيتُ من غُصَصي
ولو أنِّي ظَفِرْتُ به رجعتُ ولم تَطُلْ قِصَصي !
إذا أحببتُ تلمُّسه فذلكَ فيضُ أشجاني
أقمْ في عزلةٍ واقرأ (مزاميري بإيرانِ)[1]
ولا يحزنْكَ ما تقرأ من شطحي ومن مَيْلي
يقال : يَرُنُّ صوتُ السِّرِّ في منتصفِ الليلِ !

(١٦)

شبابٌ قعودٌ رقودٌ نيامْ لعجزِ الأميرِ وفوضى الجنود
فواأسفاً كيفَ هذي السِّهام تطيشُ بلا هَدَفٍ في الوجود
يقولون بحرٌ عميقٌ عميقُ وما أضيعَ البحرَ ما أضيعَهْ
بحثتُ به موجةً موجةً وقلَّبتُ قوقعةً قوقعهْ
أما آنَ تهجرُ أصنامَهم أما آن تخرجُ من قُمْقُمِكْ

---

(١) أحد دواوين الشاعر يحتوي على غزليات فارسية تُثير الدهشة بشطحاتها .

وغـــايـــةُ أصنـــامهـــم أنَّهـــا ... تـــزخـــرفُ هيكلَهـــا مـــن دَمِـــكْ
أنـــا كيـــفَ أجهـــرُ هـــذا المســـاء ... بســـرٍّ كهـــذا الـــذي أهتِكُـــهْ
وشغـــلُ الحكيـــم بهـــذا العـــراء ... كشغـــلِ المحـــبِّ بمـــا يُهلكـــه
هـــو الحـــبُّ ينسيـــك وقـــعَ الجِـــراح ... وتَفْضَـــحُ ســـرَّك آثـــارُه
ومـــا الحـــبُّ إنْ لـــم تمـــت عـــزّةً ... ومـــا العيـــش جَلَّلَـــهُ عـــارُهُ
أنـــا لـــم أرَ السِّـــرَّ لـــوْ لَـــمْ أنـــلْ ... طـــريقـــةَ رومـــيٍّ وأحـــوالَـــهُ
ومـــنْ بَـــدْءِ تلمـــذتـــي قـــال لـــي ... ومـــا زلـــتُ أحفـــظ مـــا قـــالَـــهُ
رأيـــتُ فـــلاسفـــةً بـــالألـــوف ... رؤوسهُـــمُ تحـــتَ أطمـــارهـــا
وذو الـــوحـــي يَـــرْفَـــع مـــنْ رأســـه ... ويكشِـــفُ أوهـــام أفكـــارِهـــا
إذا خُضْـــتَ معـــركـــةً فلْتكـــنْ ... كمـــوســـى بخطـــوتـــه الضَّـــاربـــهْ
فَمِـــنْ ﴿ لا تخف ﴾ شعلـــةٌ لـــم تـــزل ... تصـــاعـــدُ فـــي الأجمـــة الـــلاَّهبـــهْ
بـــريـــقُ الحضـــارة أوجُ التَّـــرف ... لـــدى الغـــربِ لـــم يستطـــعْ فتنتـــي
أنـــا ابـــنُ المـــدينـــة وابـــنُ النَّجـــفْ ... غبـــارُهمـــا كـــانَ فـــي مُقلتـــي
غبـــارُهمـــا قطـــرةٌ للعُيـــون ... وأنفـــعُ طـــبٍّ لـــذي علَّـــةِ
مقيـــمٌ بـــرغـــمِ ريـــاحِ القُـــرون ... ومـــا كـــان مـــن مستبـــدٍّ عتـــي

(١٧)

كـــانَ الشِّتـــاء كمثـــلِ السَّيْـــفِ حـــدَّتُـــهُ ... وكان طَرفُ الهوىٰ في مَيْعَةِ الولعِ
أيـــامَ لنـــدنَ مـــاخـــورٌ لطـــالبهـــا ... بمـــا تضـــمُّ مـــن الحـــانـــات والبِيَـــعِ
أيـــامَ كنـــتُ صـــلاةَ الفجـــر أبعثُهـــا ... على الصَّقيع بمرأى الفاجرِ الهلِع
ما لي هنا ولهيبي حيثُ رحتُ ذكي ... يثيـــر فـــي حتمـــه آلام مجتمعـــي
وكيفَ كانتْ هناكَ النَّاسُ تُنْكِرُني ... وتـــدَّعـــي أنَّ هـــمَّ الشـــرقِ جـــاء معـــي
أيـــام آلـــت مقـــاليـــدُ الأمـــور إلـــى ... مـــا تـــدَّعيـــه يـــد العُمَّـــال مـــن شُـــرع[1]

---

(١) لعلها إشارة الشاعر إلى تولي حزب العمال الحكومة في إنكلترا أول مرة عام ١٩٢٤م ، =

فكان في دربِ قُطَّاعِ الحجارة ما ... لأبرويز من التَّدليس والطَّمع[1]
يا لعبةً من دمقراطيةٍ طَلَبَتْ ... عرشَ الملوك بما أبدته من وَرَعِ
كانتْ حكايةُ فصلِ الدينِ آخرَها ... إنَّ السياسةَ جنكيزية الجَشَعِ
ذكرتُ دلهي بروما حين طفتُ بها[2] ... فكنت بينهما في ملتقى وجعي
كلا الدروس لها سحرٌ وأبَّهةٌ ... ربَّاه عفوكَ قد أبْعَدْتَ مُنتجعي

(١٨)

استفتِ قلبكَ كيفَ المسجدُ افترقا ... وكيف نخرج من محرابه فِرَقا
وأين ذو جَلَدٍ منهم يمرُّ به ... تقوى طويّتُه إنْ تكتمِ الحُرقَا
الحبُّ ، يَعْرِفُ من زلَّت له قدمٌ ... بأنَّه أقصرُ الأشياء أزمانا
وأنَّه جرحُ سهم إنْ صبرت له ... أوتيتَ منْ جُعْبَةِ الصَّياد سُلوانا
ضاعتْ عقيدةُ قومٍ في مصادمةٍ ... باثني وسبعين وادٍ من معانيها
هيهاتَ يُدْرِكُها منْ لَيْسَ في دمه ... وجدٌ يؤلِّف قاصيها ودانيها[3]
درسُ الشَّريعةِ غيرُ الوَجد وهو كما ... رأيتُ مُنْتشرٌ في جُمْلَة الفِرَقِ

= (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(١) يمثل أبرويز حزب المحافظين وهو عند إقبال حزب استعماري صريح (الأصل) .
قلت : لا يخفى أن المقصود بقوله قطاع الحجارة هنا فرهاد وبذلك : أعطى إقبال أبعاداً جديدة لقصة فرهاد وشيرين ومرةً أخرى يقول في قصيدة (اجتماع لينين بفيلهلم إمبراطور ألمانيا) إذا الشعب لبس تاج السلطان ستستمر أيضاً فوضى المجتمع .
ذلك التاج هو شيرين ؛ إذا لم يُتَيَّمْ بها أبرويز فسوف يتيّم بها فرهاد قاطع الحجارة .
انظر مجلة فكر وفن عدد ٣٢ ص٧٩ .

(٢) عند عودة إقبال من لندن بعد اشتراكه في مؤتمرالمائدة المستديرة ، الذي دعت إليه الحكومة البريطانية للبحث في الإصلاح الدستوري في الهند زار روما في نهاية عام ١٩٣١م وقابل موسوليني (الأصل) .

(٣) يذكرنا هذا المعنى ببيتٍ ربما كان من شعر بابا طاهر ، أي : كن قلندري الصفة صوفي المظهر والمشرب معروفاً لدى اثنين وسبعين فرقة (الشبك ٥٤) .

وأنَّـه وكمـا نَمَّـتْ تجـاربُنـا ... إسلامنا الغير مكتوب على الورقِ
غصنُ اليقين الرَّطيب الوَجْدُ ينبتهُ ... ولا يفـوحُ بغيـر الـوَجْـدِ معنـاه
فقـل لـذي هِمَّـةٍ بـالـدرسِ مجتهـدٍ ... هيهـات تبلـغُ بـالأوهـام مغنـاه
الحـبُّ فـي قحـة يحلـو وفـي سفـهٍ ... فكـنْ بحبِّـك فـي هـذيـن سكِّيـرا
ولا تكـونـنَّ ذا حُـبٍّ بـلا سفـهٍ ... فـإنَّ ذلـك لا يجـديـكَ قِطْميـرا
لن تهدأَ الرِّعْدَةُ الملقاةُ في خَلَدي ... ولـن تـراقـبَ يـوم الحشـر ذا جـاهِ
إنْ لـم تَشُقَّ بسيفِ السُّكر جذبتها ... شقَّـت أمـام البـرايـا معطـفَ الله[1]

(١٩)

الـزُّهـد إخضـاعُ هـذا الطِّيـن والشَّـرر ... وليس في بُعْدنا عن عالمِ البشر
فقـل لصـوفيَّـةٍ بـالفقـر راضيـةٍ ... هذا العذابُ عقابُ الجُبْنِ والخور
ومـا عليـك إذا أنكـرت مَـذْهَبَهـم ... وقلتَ : أطلب منكم زُهْدَ مُقْتَدِرِ
فالزُّهد والملكُ لا يُسْتحسنان لمن ... أضـاع أمجـاد تيمـورلنـك فـي سمـر

* * *

يا حبَّذا يغفلُ السَّاقي الجميلُ فلا ... يليـقُ بـالقـول هـذا جسمُـه القمـري
إنَّ الـرِّفـاق إذا جـاشـت قـرائحُهـم ... وأيقـظَ الطَّيْـشُ منهـم رَقْـدَةَ الفِكَـرِ
خاضوا بكلمة (عفواً) ما يروقُ لهم ... ومـزَّقـوا سـرَّهـم فـي ثـوب معتـذر
أفيلســوفٌ وصــوفــيٌّ ومجتهــدٌ ... في سكرةٍ من كؤوس السَّمعِ والبصر
ما في الثلاثة من أبدى فوا أسفاً ... من روح ذي طمحٍ في عين مُنْبَهِر
كـانـت بـزاويـةِ الأقفـاصِ بغيتُهـم ... لـو أمعنـوا قبـل هـذا التيـهِ بـالنَّظـر

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
لن تسكني رعدتي حتى في يوم الحساب ، إما أن تشق ثوبها أو أن تشق معطف الله ! يريد الشاعر أن يقول : لن أضحي بهذه الرعدة التي تمتلكني ولا بدّ لي من أن أجد من يُصغي إليها ولو لم يبقَ إلا الله فإنني سأتمسك بمعطف كبريائه ولن أبرح حتى أشقه بجذبتي أو يمحوها بخمره . (انظر ص١١٩ ، من الترجمة النثرية) .

سجنُ التَّفلُّتِ لا قضبان تُمْسِكُه ... ورُبَّ غلٍّ خفيٍّ بالغ الأثر
تغنيكَ إنْ حرتَ فيما قلتُ تجربةٌ ... فما التَّجارِب إلا مرهمُ الحِيَرِ
انظرْ خرابَ فؤادِ الغَرْبِ يأكلُه ... وعقلُه في كمالٍ وافرٍ بَطِرِ
يقوده العقلُ في نهرٍ يفجِّره ... وخَلْفَه قلبُه يمشي على كَدَرِ

***

(٢٠)

رُغْمَ أنّ العقل لا يمنعُه ... قربٌ وبُعْدُ
إنَّه والحق : ما أُهِّلَ للحَضْرةِ بَعْدُ
اسألِ الله تعالى ... والتَمِسْ عيناً لقلبكْ
إنَّها أثمنُ ما تكسِبُه ... مِنْ فَضْلِ ربِّكْ
أنا لا أنكرُ أنَّ العلمَ للنَّفس حُبُور
هو فردوسٌ ولكنْ ... فارغٌ ما فيه حورُ
ما أحقَّ النَّاس بالرأفة من عصرٍ سفيه
ليسَ في العالم قلبٌ ... يجدُ الغِبْطةَ فيه
إنَّه صحوٌ بآنٍ واحدٍ هذا الجنون
ذلكَ النَّوعُ جنونٌ ... ما له صحوٌ يكون
قلقُ القلب غذاءٌ ... وعطاءٌ حيويُّ
إنَّ قلباً ليس فيه ... قلقٌ ، قلبٌ شقيُّ
أنت للحَضْرة سرٌّ ... ما لها سرٌّ سواك
إنَّها إنْ كُنْتَ حيّاً ... حيثما كنتَ هناك
كَسَّرَ اللؤلؤُ كَسْراً ... كلَّ أصدافِ البُحورْ
فلماذا أنتَ يا لؤ ... لؤتي تأبى الظُّهور
مسلمٌ أنتَ وقد ألهبتُ سينائي عليكَ ؟!

أولا يـــزعـــج قـــولـــي : ﴿ أرنـــي أنظـــرْ إليـــكَ ﴾[1]

(٢١)

إنَّهـــا الـــذَّاتُ إن تمعَّنْـــتَ بحـــرٌ ... مـــالـــه ســـاحـــلٌ لِخَـــوْضِ جبـــانِ
ومحـــالٌ تكـــونُ جـــدولَ أنـــسٍ ... ومحـــلاً لجمـــع أهـــل الهـــوانِ
رُبَّمـــا تكســـر السَّمـــاء بفـــأس ... فبنـــاءُ السَّمـــاء سبـــكُ زجـــاج
والـــذي يجعـــلُ البحـــارَ بحـــاراً ... تُتَّقـــى أنَّهـــا محـــلُّ الهِيـــاجِ
لا يطيـــق الجبـــان لجَّـــة ذاتٍ ... ويغـــوصُ الشُّجـــاعُ فيهـــا ويطفـــو
وقـــوام الشُّجـــاع ليـــس علـــوماً ... تَـــرِبَ العلـــمُ فـــالشجـــاعـــةُ لطـــفُ
كيـــف يستـــوعـــبُ المنجِّـــمُ هـــذا ... بطـــريـــقٍ مكبَّـــلٍ بـــالنُّجـــوم
أنـــت مـــن طينـــةٍ يحـــكُّ عليهـــا ... ســـرُّك الحـــيُّ زيـــفَ كـــلِّ العلـــوم
إنَّ فـــردوســـنا علـــى الأرض هـــذي ... فيـــه جبـــريـــلُ لا يغيـــبُ وحـــورُ
حبَّـــذا أنْ تكـــونَ ثـــاقـــبَ عيـــنٍ ... حجـــرُ العيـــن فيـــه مـــاءٌ ونـــورُ
بجنـــونـــي فهمـــتُ عصـــري تمـــامـــاً ... وتحمَّلْـــتُ وقعـــةً بعـــد وقعـــه
ألْبَـــسُ الـــدِّرْعَ مـــن نسيـــجِ جنـــونـــي ... ليـــس ثـــوبـــاً مـــرقَّعـــاً ألـــفَ رُقْعـــهْ
إنَّ شـــحَّ الطبيعـــة اليـــومَ هـــذا ... وهـــيَ مـــن طبعهـــا السَّخـــاءُ لَعَـــارُ
لليـــواقيـــتِ كـــاللَّهيـــب احمـــرارٌ ... شكـــلُ نـــارٍ وليـــس فيهـــا شـــرارُ

(٢٢)

جـــاءَ مـــنْ نَسْمَـــةِ الصَّبـــاح كتـــابٌ ... وأنـــا جـــالـــسٌ علـــى عـــرشِ ذاتـــي
فـــإذا فيـــه : مبصـــرَ الـــذَّات أقبـــلْ ... صـــرتَ فـــي رتبـــة الملـــوكِ الكُمـــاةِ
شـــرفُ الـــرأي ذاكَ جـــاءكَ منهـــا ... والحيـــاةُ الكـــريمـــةُ المستقيمـــه
وحيـــاةٌ تكـــونُ مـــن غيـــر ذاتٍ ... أيُّ معنـــىً لهـــا وأيَّـــةُ قيمـــهْ

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى حكايةً عن موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

أيُّها الفيلسوفُ دعكَ وشأني ... فأنا مدركٌ إلى أينَ أمضي
لستَ مثلي مسافراً كيف أشكو ... لكَ دربي وأنتَ في غَيْرِ أرضي
ليس سهلاً إذا الدَّراويش حجَّتْ ... من بعيدٍ إلى مدارسِ شعري
القضايا دقيقةٌ فاستلمْها ... واقضِ في أمرها إذا كُنْتَ تدري
لستُ أخفيك أنَّني لم يَرُقْ لي ... ذلكَ العيشُ في طُقوسِ الضَّوامع
لا يصيد[1] العنقاءَ صيَّاد سوءٍ ... مُلِئَتْ نفسُه بذلِّ المطامع
طِرْتَ أم غُصْت في سماءٍ وبحرٍ ... أم تراجعتَ عنهما وجَبُنْتَ
ليس يدعو إلى الرِّثاء وجودٌ ... كالوجودِ الذي تعانيه أنتَ
وسواءٌ ، فلا تقل عربيٌّ ... كنتَ أو لم تكنْ فليس يُفيدُ
ستَرى الذكرَ أجنبيّاً إذا لمْ ... يَكُ للذِّكْرِ في الفؤاد شهيدُ

* * *

(٢٣)

النخلة الشمَّاءُ أختُك كُوِّنتْ ... مما تبقَّى من بقايا طينتِكْ[2]
أتطوفُ في الحاناتِ تسقي كأسَها ... وتطوفُ مخنوقاً بعلمانيتكْ
ما في مدارسِك الَّتي ترتادُها ... إلا بحوثُ مغفَّلٍ وبليد
سرُّ الدِّراسةِ في فؤادك كامنٌ ... لو كنتَ تُتْقِنُ صَرْخَةَ التَّوحيد

---

(١) يرى الدكتور كفافي أن اصطياد العنقاء رمز للظفر بأعمق حقائق العِرفان التي تستعصي على الآخرين (المثنوي ، ص١٠٥) .

(٢) في حاشية ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : يرى التراث الإسلامي أنَّ النخلة خلقت من بقايا الطين الّذي خلق منه آدم (عليه الصلاة والسلام) وتسمى (خيمة الإنسان) ويرمز بها إلى آدم أحياناً .
يقول الأستاذ زهير ظاظا (مترجم هذا الديوان شعراً من نثر الأستاذ الملُّوحي) يريد الشاعر أن يقول : أيها الإنسان إذا كانت النخلة شقيقتك فمن الّذي سرق نبيذك أيها المسكين . . . إنها العلمانية .

لـم تبـق يـا مسكيـنُ إلا فـرصـةٌ ... لـك فـي استعـادة سِـرِّكَ المفقـودِ
اطلـبْ علـومَ القلـب مـن أستـاذهـا ... واجهـدْ لنيـل مقـامِـكَ المحمـودِ

* * *

إن كـــان زيُّـــك زيَّ سلطـــانٍ ... أو كـــان زيُّـــك زيَّ مسكيـــنِ
فغِطـــاؤنـــا لا رأسَ يَحْمِلُـــه ... فيليـــق إلا رأسُ شـــاهيـــنِ
ليـس النُّجـوم بـرغـم لعبتهـا ... مسـؤولـةٌ عـن هـدم أمجـادكْ
بـل مـوتُ ذاتِـكَ بعـدمـا شَقِيَـتْ ... مـا بيـن قُمْقُمِهـا وأصفـادِكْ
أنـا آسـفٌ جـدّاً ويُحـزِنُنـي ... غضبـي علـى ديـري ومـدرستـي
ضـاعـتْ هنـاك بصيـرتـي وذوى ... حبِّـي وأظلـم دربُ معـرفتـي

* * *

(٢٤)

دواءُ البصيـرة ـ هـذا الـدواء ـ ... رجـاؤك فـي كشـفِ داءِ البصـرْ
ومـا العقـلُ إلا جـدالُ العلـوم ... وحـربُ الظُّنـونِ ورجـمُ النَّظـر
مصيـرُكَ أرفـعُ مـنْ وقفـةٍ ... وأوّلُ معنـاه ذوقُ السَّفـر
وسـرُّ الـلآلـىء خُلْـدُ البريـق ... وإلا فمعـدنُهـا مـن حَجَـرْ
ومـا هـي جـدوى دمٍ فـي العـروق ... إذا كـانَ يطفـىءُ نـارَ الفِكَـرْ
فقـلْ للشَّقـائـق فـي خِـدْرِهـا ... تجلَّـيْ فـإنِّـي نسيـمُ السَّحَـرْ[1]
ومـا عـدَّه الغـرب سقـطَ المتـاع ... بمـذهبنـا رأسُ مـال الظَّفَـرْ
يقـولـون إقبـال فـي فقـره ... غنـيٌّ علـى أيِّ كَنْـزٍ عثـرْ
وعـالمُـهُ لَهَـبٌ كلُّـهُ ... ولا يمنـحُ النَّـاس إلَّا الشَّـررْ[2]

---

(١) المقصود قل لهذه المتعلمنة : لا تخافي يا أنتِ تعالي إليّ فلن أعصف بك أنا لست إلا جمالاً وعطاءً أنا نسيم السحر ولست ريح الظهيرة .

(٢) البيت من روائع إقبال ومعناه : لا جدوى لك من لهب إقبال إذا كنت غير قابل =

أعينُ الدَّرويش لم تعبأ بما ... أظهرتْ أبَّهةُ الإسكندرِ
هذه التِّيجان ما قيمتُها ... وهي تستجدي نساءَ البيدرِ
كيف لا تيأسُ ترجو صنماً ... ومنَ الله تعالى تيأَسُ
أنتَ هل تعرف كفراً آخراً ... غير هذا أيها المنتكسُ
أنا لا أفهم ما قصدُ السَّماء ... وهي بالسُّلطة لو شاءتْ تطيح
تهبُ السُّلْطةَ من لا يملكون ... أيَّ مفهومٍ عن الشَّعْبِ الجريح
وحدَها النظرةُ ما أطلبُه ... وشؤونَ القَلْب عنها تَصْدُرُ
نظرةٌ خاليةٌ من جذبةٍ ... نظرةٌ فارغةٌ لا تَسْحرُ
وأنا منْ أجلِ هذا كلِّه ... باعتزالِ القَصْر محكومٌ عليّ
أنا لا أجهل ما تَقْصِدُه ... ومصيرُ الكلِّ معلومٌ لديَّ
مع هذا لا أرى منْ زاهدٍ ... مالهُ مِنْ طَمَعٍ في السُّلطةِ
أنا لا أقتلُ ذاتي هكذا ... أنا حرُّ سُلْطتي في خِلْطتي
وحياتي عندما شرَّدتُها ... أرْضَتِ النَّاسَ جميعاً كَلِمي
قيمةُ الأشعارِ هذي أنَّها ... خطراتٌ في قلوبِ الأُممِ

* * *

= للاشتعال .
إقبال لا يرضى أن يكون شعلة في يد الآخرين .
« إقبال يشعل ولا يضيء »

وسيأتي قوله :

حطب الموقد الغليظ مملٌّ ... وأنا رغبتي بحرق الدقاقِ
أنا لا أمنح الحصاد لحقلٍ ... عملي الفرد والوحيد احتراقي

(٢٦)

لستَ لهذي الأرضِ والسَّماءِ ... وإنَّما السَّماءُ والأرضُ لكَ
ولستُ موضوعَهُما وإنَّما ... هذان جانبانِ منْ موضوعِكَ
تطلُّعُ العقلِ ووجدُ القَلْبِ ... شرارتان من لهيب الحبِّ
والعُشْبُ موجودٌ ليحرقاهُ ... في ذلك السَّهلِ الخصيبِ الرَّحْبِ
والرُّوض هذا بقعةٌ تصطفقُ ... بصرخةٍ وزفرةٍ تنطلقُ
أعشابهُ ليستْ لصنعِ عشٍّ ... كلُّ الجمال عندما تحترقُ
حتَّى متى مركبُ هذي الذَّاتِ ... يمخُرُ في النِّيل وفي الفُراتِ
قُدِّرَ أن يركبَ بحراً ماله ... من ساحلٍ في هذه الحياةِ
فكيفَ عند هؤلاءِ رغبةٌ ... بأنْ يدلَّها المدارُ الحائرُ
ركَّابُهم بالرُّغم من نشاطها ... يَنْقُصها اليومَ دليلٌ ماهرُ
ألحاظُ موهوبٍ وعينٍ ثاقبه ... وسحرُ ألفاظٍ وروحٌ لاهبه
كلُّ الَّذي يملكهُ منْ عُدَّةٍ ... قائدُ هذي القافلاتِ الذَّاهبه
فيا لحسنِ فارسٍ ووحيهِ ... ويالكأسِه ويالغصَّتي
بحثتُ طولَ العُمْرِ في بستانه ... فما وَجَدْتُ زينةً لِقِصَّتي
تَرْقُد في حَنْجَرتي أغنيةٌ ... لو قلتُها لحيَّرت جبريلا
أحرصُ أن تبقى هنا مطويةً ... هناكَ سوفَ أنْقَعُ الغليلا

* * *

(٢٧)

لستَ يا أنتَ في الفضاء سجيناً ... لستَ دمعاً على منازلِ رسمِه
يَشْهدُ الحرُّ أنَّ سرَّ التَّجلِّي ... بين صَلْصَاله وهيكلِ جِسْمِه
لا يخاف البستانُ شَهْرَ خريفٍ ... فلماذا مَلأْتَ بالخوف عشَّكْ
يرقص العشُّ في السَّماء لهيباً ... عندما تحرقُ الصواعقُ قشَّكْ
الحياةُ الحياةُ لفظة سرٍّ ... ملأتْ عالَم القَلَنْدرِ طيبا

إنَّها السَّهمُ منذ كانت رَمَتْهُ ... ومن القوس لا يزالُ قريبا
لا تعيقُ النُّجومُ سرَّك هذا ... فسماءُ النُّجوم غيرُ سمائك
أخْطُ في الموقع الذي أنت فيه ... لترى زرقةَ السَّماءِ بمائك
لا تقلْ للدَّليل دعني لوحدي ... إنَّ أمراً كمثلِ هذا بديهي
لا يطيقُ الكريمُ ذلَّ سؤالٍ ... فاجتهدْ وَحْدَكَ اجتهادَ فقيهِ

***

(٢٨)

تأمَّلُ فيلسوفٍ كلُّ ما أعطانيَ الفِكرُ
ولولا الحبُّ ما أدركتُ ما يضَّمَّنُ السَّكرُ
ونظرتُهُ هي الشَّررُ المُشِعُّ بمحفلِ القلب
بلا دنٍّ ولا خمر ... تدور كؤوسُها جنبي
تظنُّ تنافُر الكلماتِ مِنْ شعري ومنْ أدبي
فحانتا على علمٍ ... بما مزَّقت منْ حُجُبي
إليكَ البرعمَ الظَّامي ... لِمَقْدَم نسمةِ الصُّبْحِ
تأمَّلْه تجدْ فيه ... حكايةَ ذلكَ الجُرْحِ
غيابٌ أم حضورٌ لستُ أدري ما أكابدُه
فهلْ من بينهم أحدٌ ... يشاهدُ ما أُشَاهِده
هنا يا أنتَ كلُّ الناس يعرِفُ بعضُهم بعضا
هنا إلا أنا فيهم ... غريبٌ يُنْكِرُ الأرضَا
وكنتُ بقصرِ أوريَّة ... من المُمْكِنِ أن أبقى
شريطةَ تحمُّل الصَّحراء حين أُجنُّ ما تلقى
مضى إقبالُ هوناً في دروبِ الفِكْرِ واجتازا
ولما جاءَ دربَ الحبِّ مالَ القلبُ وانحازا

(٢٩)

وأخيـــراً انتبهـــتُ ولبَّـــتْ صَـــرختـــي هـــذي السَّمـــاءْ
وسمعـــتُ مـــا قـــالـــوا : أخيـــراً ســـوف يَنْكشـــفُ الغِطـــاء
للعـــاشقيـــن حكـــايـــةٌ وتكـــاد تتَّفِـــقُ الحكـــايـــه
نـــارٌ وحـــزنٌ وانفجـــارٌ فـــي البـــدايـــةِ والنِّهـــايـــهْ
فـــانظـــرْ إلـــى قَـــدَرِ الشُّعـــوب وكيـــف يبـــدأُ بـــالسُّيـــوف
فـــإذا انتهـــى فـــإلـــى المـــزاميـــر الشَّجيَّـــة والـــدُّفـــوف
حـــانـــاتُ أوربَّـــة كـــذلـــك والغـــريـــبُ طقـــوسُهـــا
السُّكْـــــرُ يبـــــدأ أولاً وتـــدورُ بعـــدُ كـــؤوسهـــا
سِيَّـــانِ تيمـــورلنـــك فـــي سُلْطـــانـــه سلطـــانِ نـــادرْ
الكـــلُّ تسقطُـــه أخيـــراً سَكْـــرةُ الـــزَّمـــنِ المُبَـــادرْ
ولَّـــىٰ زمـــانُ الـــوَحْـــدة المطـــروح فـــي دَرْبِ الفنـــاءْ
خـــرجـــتْ أخيـــراً مـــن صـــدور الغَيْـــم عـــاصفـــةُ البقـــاءْ
لـــم يتحمـــل مـــوجـــةَ الشَّطحـــاتِ هـــذي أيُّ ســـاحـــل
هتَكْـــتَ يـــا مجنـــونُ أســـرارَ الكتـــابِ بغيـــرِ طـــائـــل

(٣٠)

يـــرحـــلُ كـــلُّ كـــائـــنٍ ويـــذهـــبُ حـــوتٌ وطيـــرٌ ، لجـــةٌ وكـــوكـــبُ
وأنـــتَ أنـــتَ فـــارسُ الميـــدان وقـــائـــدُ الجيـــوشِ فـــي الـــزَّمـــان
يـــا سيِّـــد الجبـــالِ والصَّحـــراء جنـــدُك فـــي الأرضِ وفـــي السَّمـــاء
أهكـــذا قيمتُـــك الـــذَّاتيـــة هـــدرتُهـــا وروحُـــك الفتيَّـــه
فيـــا لهـــا بصيـــرةٌ فـــي كـــدرِ ويـــالـــه مـــن قِصَـــرٍ فـــي البصـــرِ
لا تعبـــدِ الأرضَ فـــإنَّهـــا لَكـــا كـــنْ راهبـــاً إنْ شئـــتَ أو كُـــنْ مَلكـــا
لا شـــكَّ فيمـــا قُلْتُـــهُ ولا جَـــرَمْ فقـــد رأيـــتُ اليـــوم سيِّـــدَ الحَـــرَم
قـــولٌ بـــلا فِكْـــرٍ ولا إشـــاره وعمـــلٌ تَنْقُصُـــه الحـــراره

كلُّ شيءٍ إلى التَّجَسُّدِ يسعى ... رغبةً في النُّمُوِّ يهلكُ نفسَهُ
وحياةٌ بغير ذوقِ ظهورٍ ... يحتويها ، يسومها الموتُ بؤسَهْ
قُوَّةُ الذَّات قوةُ الذَّات سرٌّ ... يَهَبُ النَّصرَ في الحياة لأعزَلْ
خَوَرُ الذَّات يجعل السَّيف عبئاً ... ويرى في الجبالِ حبَّة خردلْ
شرَّدتْ نفسَها النُّجومُ ولكنْ ... ليسَ يعني ضلالةً واختلاطا
لفراقٍ يؤولُ كلُّ وجودٍ ... ليس عن صُدْفةٍ وليس اعتباطا
يظهر البَدْرُ آخر الليل فردا ... أصفرَ الوجه في السَّماء وحيدا
كلُّ نورٍ أخَذْتَه منْ غريبٍ ... سوف تخبو به رويداً رويدا
قلبُك الشَّمسُ فاقْبِسِ النُّورَ منه ... كلُّ ما ترتجيهِ نفسُك عندكْ
كلُّ شيءٍ سواك ـ أنت ـ سرابٌ ... شَهِدَ اللهُ أنَّك الحقُّ وَحْدَكْ
شوكُ صحرائنا يحلُّ بلطفٍ ... عِقْدَ السَّالكين من حيثُ يُدمي
فامضِ في الشَّوك حافياً وتقرَّح ... لستَ تنجو بلا جنونٍ وحزمِ
لغزُ هذي التَّداخلاتِ وإنْ لم ... يستطعْ أن يفكَّه العِلْمُ كلُّهُ
شوكُ صحرائِنا يغورُ برفقٍ ... وبأسلوبِه اللَّطيفِ يحلُّهُ

(٣٢)

ما لِمُلْكِ الغرب خُلْدٌ ... بَلَغَ العَصْرُ أشُدَّهْ
كلَّما شيَّد صرحاً ... ضَحِكَ الشرق وهدَّه
عندما أنهيتُ عشيٍّ ... قيل هبْ للعُشِّ ذاتا
صرخاتُ العُشِّ برقٌ ... تملأ العُشَّ حياةَ
أنتَ عبدُ الله فالزمْ ... ليس للحرِّ تحوُّلْ
ما عدا عزَّ العبودية لله تسوُّلْ
سيِّدُ الأحرارِ عبدٌ ... حرم الله بذاتِهْ
فاحفظِ الذَّات وصُنْها ... إنَّها منْ عَتَباتِهْ
كيفَ (إلا الله) لم تَدْمَغْ أساطيرَ مسطَّرْ

أيـــــنَ ذاك الكَلِـــــمُ الطيِّـــــبُ والطَّبـــــعُ المُسَيْطـــــرْ
كـــمْ قلـــوبٍ فـــي صـــدورٍ ذُعِـــرَتْ مـــنْ نَظْـــرَتِـــك
درس العلـــم اللَّـــدُنِّـــي وذوى فـــي فطـــرتـــك
ربمـــا أشـــرفَ إقبـــال علـــى الســـرِّ القـــديـــم
حـــدَّث السِّـــرُّ حـــديثـــاً كحميـــــمٍ لحميـــــمْ

(٣٣)

لِمَ تسألون القومَ ما هو مصدري ؟ وأنـا بنفسـي لـم أُحِـطْ بمصيـري
ما زلتُ منذ وُجِدْتُ أشرقُ سائلاً وأغيـبُ في وَجْـدي وفـي تفكيـري
الحـرُّ يَسْمـو فـي الحيـاةِ بـذاتـه ويصـوغُ مـا يختـارُه مِـنْ أمـره
يـا أنـتَ حتـى اللهُ جـلَّ جـلالـه أفتـى بـرأي كليمِـه فـي عمـره
أسـرارُ روحِـك جَـدُّ سيمـائيـة فَلِمَ النِّزاع على هياكلَ مِنْ حَجَر
بلهيـبِ أنفـاسـي الَّتـي أطلقْتُهـا شـاهـدتُ مـا تخفيـه أعمـاقُ القَـدَر
سِـرِّي تتـرجمـه سـلاطـةُ أعينـي لا تسـألـونـي مـن تكـونُ ومـا هـي
لـو أن (نيتشـه) جـاءنـي بحمـاسـهِ لأريتُـــه (زردشتَـــه) وإلهـــي
صرخاتُ وَجْدي في الصَّباح تلَطَّخَتْ بـدمـي ولـم أسْمَـعْ لهـنَّ جـوابـا
ربَّـاه ! أيُّ جـريمـةٍ قـارفتُهـا لأكـونَ مـن قتلـىٰ الصَّبـاحِ عقـابـا

(٣٤)

تَـدَخُّـلُ الحـبِّ بـأطـوار السُّلـوكْ يكشـفُ للعبيـدِ أسـرارَ المُلـوكْ
مـا كـان للـرازيْ وَلِلْغـزالـي والـرُّومـيْ والعَطَّـارِ مِـنْ نـوالِ
لـو لـم يعـانـوا رغبـةَ الصِّيـاح وصـرخـةَ الحيـرةِ فـي الصَّبـاح
فيـا رئيـسَ الـرَّتْـل كـنْ حليمـا لا يقتـلُ اليـأس فتـىً حكيمـا
تنقُصنـا شجـاعـةُ الـرَّسـولِ لا تَنْقُـصُ الـرَّغبـةُ فـي الـوصـولِ
إيـاكِ يـا قُبَّـرتـي مـن التَّلـفْ فالموتُ خيرٌ لكِ من هذا العَلَفْ
يُعَـرْقِـلُ الجنـاحَ أن يطيـرَ وربَّمـا يتـركُـه كَسِيـرا

أعـــزُّ مـــن أُبَّهـــة الإسكنـــدر ... وملـــك (دارا) نظـــرة القَلَنْـــدَرِ
دَرْوشـــةٌ تَنِـــمُّ عـــن قلـــبِ ملـــيْ ... فيـــه عبيـــرُ أَسَـــدٍ علـــيّ
شـــريعـــةُ الشجعـــان هـــؤلاء ... الجهـــرُ بـــالحـــقِّ بـــلا رِيـــاء
ومـــا لهـــؤلاءِ قـــطُّ غـــالـــبُ ... هـــذي أســـودُ اللهِ لا ثَعـــالِـــبُ

* * *

(٣٥)

جـاءَ مـنْ عِنْـدِهـم كتـابٌ جـديـدٌ ... صـــرخـــة الليـــل أوصَلَتْـــه إليَّـــا
فـإذا فيـه : يـا مسـافـرُ أمْسِـكْ ... وتفكَّـــرْ بمـــا قَطَعْـــتَ مليَّـــا
ربمـا كُنْـتَ ذاهبـاً مـن جـديـدٍ ... فـي طـريـقٍ كمثـلِ تلـكَ عَسِيْـره
غُـصْ طـويـلاً فـأنـتَ أيضـاً عميـقٌ ... وافهـم القَصْـدَ فـالحيـاةُ قصيـرة
أنا (سيفاً خرجت) من غير غِمْدٍ ... ضـاعَ فـي غَمْـرَة المعـاركِ غِمْـدي
يجـرحُ النَّـاسَ منظـري مـن بعيـدٍ ... ويخـوضُـون فـي مـرامـي وقَصْـدِي
أيُّ مُسْتَهْتِـــرٍ بكـــلِّ مـــلامٍ ... خطَّ فوق المِحْرَابِ تلكَ الحروفا
(هـــذه الأغبيـــاء تسجـــدُ لمَّـــا ... يقتضـي الأمـرُ أنْ يكـونـوا وقـوفـا)
امْـضِ يـا شـاهـدَ الشَّقـاءِ بصمـتٍ ... إنْ تكنْ موضوعي لمزَّقْتَ نفسك
بعـدمـا الحفلـةُ انتهـت وتـولَّـوا ... جاء دوري وقيل : كأسَك كأسَك
وهـــبَ المسلميـــن إقبـــالُ نـــاراً ... فـــإذا النَّـــار ذاتُهـــا فـــي ذُبـــولِ !!
مـا علـى الكـأسِ فـي الحقيقـةِ لـومٌ ... خـامـلٌ طـافَ بيـن أهـل الخمـول
ذاك إقبـــالُ كنـــتُ أبحـــثُ عنـــه ... وهـــو مُسْتَعْصِـــمٌ بحصـــنٍ ورُخِّ
وأخيـــراً وبعـــد لأي طـــويـــلٍ ... وقـع البـازُ فـي حبـائـلِ فخِّـي

(٣٦)

أنـــا لـــولا مـــوجـــةُ الـــرَّغْبَـــة لـــم تـــوجـــدْ حيـــاتـــي
فحيـــاتـــي مـــوجـــةُ الـــرَّغبَـــة فـــي أعمـــاقِ ذاتـــي

كـــلُّ حيـــنٍ عـــالمـــي يَضْطـــرُّنـــي أطلـــقُ وَجْـــدي
عـــلَّ إنســـانـــاً جـــديـــداً يحمـــلُ اللَّـــوعـــة بعـــدي
ممكـــنٌ للنَّـــار أنْ تحـــرِقَـــهُ عشَّـــك هـــذا
تســـألُ السَّـــاقـــي إذا لـــم تـــكُ ظمـــآنـــاً لمـــاذا
لا تقـــلْ فـــي الغَـــرْبِ رأيـــاً ببـــريـــقٍ يتعلَّـــق
مـــاسُـــه مـــنْ كهـــربـــاء جعَلَتْـــهُ يتـــألَّـــق
لا تتـــوقُ النَّفـــسُ أنْ تَحْكُـــمَ آفـــاقَ الفَضـــاء
حيـــنَ لا تتَّصـــف الأبصـــار حقَّـــاً بـــالمَضـــاء
أنـــا لـــو لـــم تسقـــطِ الأوراقُ عـــن عشِّـــي اللَّطيـــف
عَجِـــزَ الصَّيـــادُ عـــن صيـــدي ولـــو وقـــتَ الخـــريـــف
عـــن قـــريـــبٍ تَقْلِـــبُ النيَّـــاتُ أقـــدارَ الخـــلائـــق
ليـــس أوهـــامُ غبـــيٍّ إنَّهـــا جـــدُّ حقـــائـــق

* * *

(٣٧)

العقـــلُ هـــذا ليـــس يَقْهَـــرُ وسعُـــه وســـعَ الطبيعْـــه
وجهـــاً لـــوجـــهٍ ضَعْهُمـــا وانظـــرْ لقـــوَّتهـــا المطيعـــهْ
الحـــقُّ : أنَّـــك قـــد أضعْـــتَ الـــذَّاتَ فـــاطلـــبْ مـــا أَضَعْتـــا
وعلـــى العطـــورِ وعـــالـــمِ الألـــوان سيْطـــرْ مـــا اسْتَطَعْتـــا
وانظـــر مقـــام القبّـــة الـــزرقـــاء ليـــس لـــه حـــدود
واختـــرْ مَقـــامـــاً مثلـــه يَسْمـــو بـــذاتِـــك فـــي الـــوُجـــود
أشجـــارُ حَـــوْرِكَ عـــاريـــاتٌ حـــول قـــارعـــةِ الطَّـــريـــق
أوقـــفْ تمـــزُّق وردك الظَّـــامـــي وتحطيـــمَ الشَّقيـــق
لـــم يستطـــعْ ذوقُ الطبيعـــة أن يـــؤكِّـــد وسْعَـــهُ
اصْنَـــعْ بِـــذَوقـــكَ أنـــت مـــا لـــم تستطـــع هـــي صُنْعَـــه

(٣٨)

شيوخُ القومِ أجدرُ بالرِّثاءِ ... وأربابُ الكنيسةِ في سواءِ
حصادُ جهودِهم ظلماتُ شكٍّ ... جَرَتْ في قلبهم مجرى الدِّماء
بنفسك ثِقْ تجدْ (نغفور) عبداً ... ويسألُ عن رضاك (ابنُ السماء)(١)
أنا حزني على هجري تبدَّى ... بآلافٍ من الطُّرُقِ الدَّقيقهْ
بسكرةِ قربه ، بصُراخِ وَجْدٍ ... رَجَعْتُ به ، بدهشته السَّحيقهْ
ومنْ يكُ شأنُه حبّاً وسكراً ... تجاوزَ حدَّ إدراكِ الحقيقه
جرى قدرُ الجمالِ بكلِّ قلبٍ ... إذا كان الهوى كانَ الجنونُ
وذنبُ الرَّاجعين بلا نصيبٍ ... من الحسناء تفضَحُه العيونُ
أما كانت بنو تيمور تركا ... بنو عثمان أتراكٌ كذاكا
أولئك في ترابِ السند ضاعوا ... وصخرُ أولاء مرتفعٌ هناكَ
بمَ النُّسَّاكُ في الحَرَم استبدَّت ... بإقبال الذي هَجَرَ القُصورا
ولم تَقْوَ الملوكُ عليه يوماً ... وقدْ ملأتْ عوالمَهَا نُسورا
فما هو سرُّهُ ؟ الشَّاهين هذا ... ملوكيٌّ لجينيٌّ خفيفُ
يطيرُ على القُصور فيزدريها ... ويدمي قلبَه الحَرَمُ الشريف

(٣٩)

العلمُ أطْلَقَ الحياةَ الراقدهْ ... في شعوذاتٍ من عصورٍ بائدهْ
منْ كلِّ سحرِ عصرنا مُحاشُ ... بلا عصا الكَليمِ لا يُعاشُ
ذو العقلِ مثلُ نصلِ سيفٍ عقلُهُ ... بألفِ أسلوبٍ يتمُّ صقلُهُ
والحبُّ مسكينٌ شريدٌ زاهدُ ... ومالَهُ إلا طريقٌ واحدُ
حُجَّاجُه تَظَلُّ في تلهُّفِ ... لا يعرفونَ تَرَفَ التوقُّفِ

---

(١) ابن السَّماء : إمبراطور من أباطرة الصين ، وكذا نغفور ، وللأخير تنتسبُ الكؤوس النغفورية التي يُضرب بها المثل بالجودة والندرة .

مسافرون دائماً وإنْ هُمُ ... بدوا مقيمين لم يراهُمُ
ليس يسيراً هاهنا انتقالُكَ ... بالزاد والمطيَّة انشغالُكَ
وأنت لو ألقيتَ ذلك الثِّقَلْ ... لكنت كالنَّسيم تعبُرُ الجَبَلْ
يا أنتَ ! ثروةُ الحكيم طرًّا ... في أنْ يعيشَ ويموتَ حُرّا
والآخرون جَهْدُهم مُنْتَهبُ ... نفوسُهم كما يريدُ الذَّهبُ
أرواحُهم ترزحُ في المصائبِ ... ورأسُمالهم من الضَّرائبِ

(٤٠)

حياةٌ تُمزِّق صَدْرَ الفضاءْ ... يصاحبُها ركبُها المستمرّ
مغامرةٌ خلفَ أخرى تخوض ... وقافلةٌ خَلْفَ أخرى تمرُّ
كذلك حبُّكَ لا ينتهي ... ولا تَسْتَقِرُّ معاناتُه
هناكَ تجارِب أخرى له ... إذا هي زالتْ سمواتُه
إذا ضاع عُشٌّ فلا تكتئبْ ... ففي روضنا ألفُ عشٍّ لكَ
ولولا بساتينُ أخرى هناكَ ... لكنتُ بكيتُ له مثلكَ
فَطِرْ ليس لِلْبَاز أن يستريحْ ... ولا تبكِ عشّاً رماهُ القَضاءْ
ففي دَرْبنا ألفُ قلبٍ جريحْ ... وألفُ مناسبةٍ للبكاءْ
سمواتُنا تلكَ لا تنتهي ... وأنت قُصاراك في أن تَطِيرْ
فإيَّاك أغلالَهم إنَّها ... تضيِّعُ نَكْهةَ هذا المسير
أنا قد تخلَّيتُ عن حُمْقِهم ... وألقَيْتُ في وجْهِهم وَحْدَتي
وأصبحتُ لي أصدقاءُ هناك ... بأخبارِهم ترتوي جَلْوَتي

* * *

(٤١)

(نظمت في فرنسا)

يرى الغرب أنَّ بقاءَ الرَّفاه أن يستمرَّ بهذا النَّهجْ

فكم يفعلُ الطَّيشُ في عقله ... ويُنْقِصُ رغبته من نُضجْ
لقد بلغتْ صرختي أوجَها ... كذلكَ أعْلَنَ شيخُ الحَرَمْ
وحذَّرني اليومَ منْ كَتْمِها ... لِتَسْمَعَ ذلكَ كلُّ الأممْ
أنا لم أقل ﴿ أرني ﴾ مرةً ... كموسى لأعرفَ أسراره
فموسى جديرٌ بإلحاحِه ... ومثلي جديرٌ بما اختاره
وبالرُّغْمِ من أنَّ أهل القلوبْ ... تُهتِّك أسرارَها في البلادْ
فإنَّ الطرائق هذي الجريئة يَصْعُبُ إطلاقُها للعبادْ
تضرُّعُ حاشية السالكين ... عيونٌ ضعافٌ وقلبٌ هلوعْ
فأين الحماسةُ أين النَّضارةُ أين السَّكينةُ أين الدُّموعْ
أنا لم أزل عَطِشاً ما ارتويتْ ... كمِثْلِكَ عطشان لم ترتوِ
هو الحبُّ أسمى صعودٍ لنا ... ولكنَّنا فيه لم نَنْضَوِ
نهضنا بأسلوبِ درويشنا ... فكانَتْ لنا أرضُ رومُ وشَامْ
ولما زَهِدْنا بأسلوبه ... ذهبنا دواليكَ خلفَ الأنام

(٤٢)

ذاتَك فالذَّاتُ الَّتي تَدْعَمُها ... معرفةٌ يغبطُها جبريلُ
وإنْ أضافَ الحبُّ عوناً أطْلَقَتْ ... في النَّاس ما يُطْلِقُ إسرافيلُ
أنا خليلُ هذه الأصنام ... وعُدَّتي معرفةُ الأيام
في النَّارِ ألقَوْني كإبراهيمَ ... فكنتُ في النِّيران في نعيم

* * *

قافلةُ القَوْم بوضعٍ يؤسفُ ... حائرةٌ يَسْحَرُها التوقُّف
ورُغمَ هذا غِبْطةُ السِّياحه ... تجاوزتْ غِبْطةَ تِلك الرَّاحه
أنا على شِعْري شديدُ الغيرهْ ... فقمْ إذا كنتَ بلا بصيره
أنا مجالي الذَّاتُ في مشاعري ... نبيلةٌ كحدِّ سيفِ بَاتر

* * *

تـذكـرتْ روحـي دروسَ الغَـرْبِ أيـامَ حـوره سَكِـرْن جنبـي
فـآهٍ يـا لفـرحـةِ الحضـورِ وآهٍ مـن منطقـه المَغْـرُور

* * *

هـذا الـزَّمـانُ ليلُـه شـديـدُ وأنـتَ عـن قـافلتـي بعيـدُ
لهيـبُ زَفْـرتـي هـو المصباح لـكْ يُبَـدِّدُ الليـلَ وَيَقْشـع الحَلَـكْ

* * *

حكـايـةٌ ليـس لهـا نظيـرُ بسيطـةٌ لكنَّهـا تُثِيْـرُ
ثبـاتُ إسمـاعيـلَ مُبْتَـداهـا ومَقْتَـلُ الحسيـنِ منتهـاهـا

* * *

(٤٣)

غصـنُ العَقيـدة فـي المـدارس عـارِ ومـذاقُ أديـرةٍ بـلا أسـرار
بالزُّغْم من طُول الطَّريق وعُسْره عينـاكَ ظـاعنـةٌ وقلبُـك سـارِ
أسفـاً لـديـنٍ ليـسَ يَكْسِبُ دولـةً ولـدولـةٍ وقفـتْ كخيبَـر وجهـه
مـن أيـنَ لـلاثنيـن كـرَّةُ حَيْـدَر يلقـي سخـافتهـا ويُصْلِـحُ فقهَـهُ
لا تبلـغُ العلمـاءُ بـاطـنَ مـؤمـنٍ ومـذاقَ رغبتـه ولطـفَ تـأمُّلِـهْ
أسـرارهُ فيمـا وراءَ حُـدودهـم وجمـالُـه فيمـا وراء تجمُّلـه
وعجـوزُ حـانتنـا يقـولُ مـؤكِّـداً عـن صـرحِ أوربَّـة المضيءِ المعتمِ
هـذي المـرايـا مـن جليـدٍ مـا لهـا وُسْـعٌ لِتَعْكِـسَ نـورَ قلـبِ المسلـمِ

(٤٤)

الحـادثُ المحجـوبُ قَبْـلَ ظهـوره للنَّـاس تُعْلِنُـه نقـاوةُ مُهْجَتـي
لا حـظَّ لـلأفـلاك مـن دورانهـا فـالسـرُّ مظهـرُه جسـارةُ صَـرْختي
أتَـرى بـلا روحٍ شـرارةَ أنّتـي أم أنَّ عُشْبَـك مـا يـزالُ نـديَّـا

صرخاتُ هذا القلب في صَلْصَاله ... تُـذْكـي لهيبَـك بكـرةً وعَشِيًّـا
لـن يَخْمُـد اللَّهبُ الـذي في طينتي ... حتَّـى يُحـرِّر كـلَّ شـيءٍ فيهـا
بـالـرُّغـم مـن قَـدَرٍ قـد ارْتَبَكَتْ بـه ... فُضِحَتْ شيوخُ السُّكر في ناديها

(٤٥)

مـا وَجَـدْنـا وقـد بَحَثْنـا كثيـرا ... فـي حـواشـي الصُّـوفـيِّ إلا غُبـارا
يـدَّعـي أنَّـه يخـوضُ حـروبـاً ... كبَّـدَتْـه هـزيمـةً وشَنَـارا
كيـفَ زالـتْ حـرارةُ الحـبِّ عنـه ... وارتضـى هـذه الحيـاةَ السَّقيمـهْ
حـربُـه لـم تكـنْ لِيَغْنَـم شيئـاً ... وقُصَـاراه أن يكـونَ غنيمـه
كُتُـبُ القَـوْمِ عنـده فـوقَ بعـضٍ ... يصـلُ الليـلَ حـولهـا بـالنَّهـار
مـا تبقَّـى لـديـه إلا حكـايـا ... أوليـاءَ يقـولُهـا للصِّغـارِ
مـا تعجَّبـتُ أنْ يشيـعَ خـرابٌ ... فـي الـزَّوايـا وفـي تَكـايـا السُّلـوك
عجبـي مـن نهـايـةٍ مثـلَ هـذي ... كيـفَ دبَّـت إلـى قُصُـورِ الملـوك
امْـضِ يـا شـاهـدَ الشَّقـاء بصمـتٍ ... أيُّ يـومٍ مضـى عليـكَ كيـومـي
مثـلَ سَجَّـادةِ الصَّـلاة نفـاقـاً ... يَطْفَـحُ التَّـاجَ فـي منـازِلِ قـومـي
الكتـابُ الَّـذي يمـوجُ بيـاضـاً ... والَّـذي عنْـد كـلِّ مُـلاًّ وصـوفـي
يمـلأُ الحشـرَ حيـرةً وارتبـاكـاً ... ووقـوفـاً يكـونُ مثـلَ وقـوفـي
وسـواءٌ كـان ابـنُ آدم هـذا ... عـربيّـاً أم لا ، معـانيـه بيـضُ
وعـنِ العَـالَـمِ الَّـذي هـو فيـه ... وعـنِ العـالـمِ الأخيـرِ يفيـضُ
ذهبـتْ سكـرةُ المسـاء ولكـنْ ... نظـرةُ السَّـاقـي فـي الفـؤاد كنصْـلِ
ولهـا فيـه طعنـةٌ بعـد أخـرى ... فَسَلُـوهُ فـديتُـه لِـمَ قَتَلـي ؟
لا يـذمُّ البستـانُ مُـرَّ غنـائـي ... يَصْبُـغ الـرُّوحَ مِنْـه لـونـاً فلـونـا
رُبَّ سُـمٍّ يكـونُ تـريـاقَ داءٍ ... ودواءٍ يكـونُ للـدَّاء عَـوْنـا

* * *

(٤٦)

أقصى مواهبِ أوربَّة النشيطةِ أن ... تَقْلِبَ العَصْرَ في ليلٍ من التِّيهِ
كم وردةٍ قصفتْ في روضنا يدُها ... ما مزَّقت طوقَ زرٍّ واحدٍ فيه
حرارةُ الحبِّ من خمر اليقين وما ... لمنكرِ الحبِّ إلا الوهمُ يُفْنِيه
هَبِ المدارس يا رباه حُرْقَتَها ... فحسنُها باردٌ لا رُوْحَ تُذْكيه
متى سمواتُنا تنشقُّ وَرْدَتُها ... متى ابنُ آدمِنا هذا ترقِّيه
هذي السَّماءُ التي أغرتْ كواكبَنا ... اللَّازَوَرْديَّةُ المجنونةُ الفَرِحَهْ
سماءُ شيطانٍ ما فيها ملائكةٌ ... رأسٌ منيرٌ ولكنْ نظرةٌ وقحهْ
العقلُ حجَّتنا طُرّاً فما أحدٌ ... إلا وَلِلْعَقْلِ مصباحٌ بمذهبه
هذا الجنون - ومن يدري حقيقتَه - ... لعلَّه هو أيضاً أن يُصاب به
العقلُ عند جميع النَّاس منهجُه ... ولم يكن من خصوصيات إنسان
والمؤمنُ الحقُّ هذا الكونُ أجمعُه ... ميراثُه ، وأنا - لولاك - برهاني

(٤٧)

ليسَ سهلاً فَقَبْلَ بدئِك فارجعْ ... يرفضُ البَحْرُ أن يقول لماذا
موضعُ الدُّرَّةِ الفريدةِ صعبٌ ... وخلالَ الطَّريق تعرفُ هذا
ما لسنجارَ أو لـ (طغرل) حظٌّ ... من عيونِ القَلَنْدَر[1] الملكية
حيرةُ الفِكْرِ أم حماسةُ رومي ؟ ... وجْدُ موسى أم فكرةٌ فلسفيه ؟
هي أسلوبُ ثعلبٍ في ظَلامٍ ... أم (يَدُ الله) في طريقة حُبِّه ؟
حيلةُ الإنكليز تظهرُها أمْ ... هجماتُ التُّركيِّ داخلَ حربه
أهي في هذه الشَّريعة قامتْ ... تحْرُسُ المعْبَدَ الذي شيَّدَتْهُ ؟
أمْ هي الوَجْدُ في فؤادِ مُلَبٍّ ... يُمْسِكُ الكعبةَ التي ألهبتْهُ

---

(١) من شيوخ المتصوفة في الهند ، وقد سبقت ترجمته في الديوان الثاني (القسم الأول) .

كـنْ غنيـاً وكـنْ إذا شئـت عبـداً ... أو أميراً ما بين (سمعاً وطاعه)
كـلُّ هـذي الألقـابِ ألقـابُ وَهْـمِ ... لا يكـونُ الـوصـولُ دونَ شَجَـاعَـهْ

(٤٨)

ليـس لِلْجُنْـدِ غيـرُ شكـلِ سيـوفٍ ... ليـس للتَّـاج غيـرُ لمعـةِ جـوهـرْ
فـي عـروشٍ وفـي جيـوشٍ بحثنـا ... مـا عثـرنـا علـى فـؤاد القَلَنْـدَرْ
لـمْ تحصِّـلْ مـن (لا إلـه) ضيـاءً ... هـذه الـذَّاتُ للطَّـريـقِ الطَّـويـلِ
أصبحـتْ معبـداً لأصنـامِ وهـمٍ ... عنـدمـا ضيعـتْ حـوارَ الخليـلِ
يصنـع الحـرُّ كـونَـه بجهـادٍ ... ويـرى فـي تَـدَخُّـلِ النَّـاس عـارا
لَسْـتَ آجـرّةً لقصـرِ غـريـبٍ ... لَسْـتَ فـي وقعـةِ الحيـاة غُبـارا
كـلُّ مـا فـي سمـائنـا مـن مَـدَارٍ ... لا يسـاوي مـدارَ هـذي القلـوبِ
ومَصِيْـرُ القلـوبُ أبعـدُ شـأواً ... مـن غبـارٍ مشـرَّدٍ فـي الـدُّروبِ
قـال أهـلُ البِحـار أهـلُ البـراري : ... ليـس لِلْغَـرْب غيـرُ راحـةِ يـأسـهِ
واقـفٌ فـي طـريـق سيـلٍ عنيـدٍ ... ليـس يقـوى علـى حمـايـة نفسِـهِ
قِـفْ قليـلاً فـأنـت أيضـاً قـديـرٌ ... ولـكَ الحـقُّ فـي اختيـارِ الحيـاة
كـلُّ فجـرٍ يطـلُّ تبـدعُ كـونـاً ... صـرخـةُ الـوَجْـد في عـوالـم ذاتي
أنـا فـي حـانتـي قنعـتُ بـدَنِّـي ... لست ممَّنْ يطوف حول الكنائسْ
أبـداً لا تقـدِّمِ الخمـرُ هـذي ... نَفْسَهـا فـي رحـاب تِلْـكَ المـدارس

(٤٩)

لـم تَهَـبْ لـي الطبيعـةُ اليـوم فِكْـراً ... ثـاقبـاً ، غيـر أنَّنـي لا أُبـالـي
عُـدَّتـي طينتـي التـي وهبتنـي ... طيـرانـي المُخِـفُّ عَبْـرَ الليـالـي
طينـةٌ بـالجنـون تَصْقُـل حِسِّـي ... طينـةٌ تَجْعَـلُ الغبـيَّ نبيهـا
ربمـا مَـزَّقـتُ لجبـريـل سـرّاً ... ورأى قـولـه : ﴿ أتجعـل فيهـا ﴾
طينتـي لا يهمُّهـا صُنْـعَ عـشٍّ ... مـنْ دقـاقِ الأغصـانِ فـي البُستـان

وجبينُ النُّجوم يَرْشَحُ عاراً لبريقِ الدُّموعِ في أجفاني

(٥٠)

يَقْصِدُ المُبْدعُ الغَيُورُ بلاداً لمعانيه غيرَ كلِّ البلاد
لا إلى الكوفة التي ما استطاعتْ كَسْرَ سيفٍ ولا إلى بغداد[١]
نظراتي التي تموجُ فتوناً والَّتي تملأ الفؤاد حُبُورا
مَنَحَتْني في حانةِ الغرب صحواً ونشاطاً وغبطةً وسُرورا
لست أحتاج فيلسوفاً ومُلاّ موتُ قلبٍ هما وفِسْقُ بصيره
كيف لِلاهوتيٍّ أُبدي ازدرائي حين ألقاه وهو رأسُ العشيره !!
الدَّراويشُ يطربون لهذا والدَّراويش دأبُهم غيرُ دأبي
لستُ أُغْنىٰ بمثلِ هذا فدعني أبحثُ اليوم عن تفتُّحِ قلبي
ممكنٌ يُشْترى غنى (أبرويزٍ) ومحالٌ جراح (فرهاد) تُشْرىٰ[٢]

---

(١) بغداد : عاصمة العباسيين إذاً فهي السلطة المادية ، والكوفة عاصمة علي رضي الله عنه إذاً فهي السلطة الروحية .

(٢) فرهاد : شخصية إيرانيّة أسطورية وقصة حبه لشيرين مشهورة في الأدب الفارسي ، كان فرهاد قاطع أحجار فشغف بالملكة شيرين شغفاً جنونياً وهي زوجة أبرويز وقبل من أجلها معاناة كل المصاعب أمره وزير أبرويز بحفر قناة في الجبل لجرّ بحر اللبن لعلاج الملكة التي زعم أنها مريضة فحفر فرهاد القناة ، وقيل له عندئذ : إن الملكة ماتت فانتحر عند سماع النبأ .
وعندما علمت الملكة بانتحاره وكانت صحيحةً سليمةً مضت إلى قبر العاشق وعندئذ انفتح القبر ومضت شيرين للحاق بالحبيب فرهاد . وتناول الشعراء هذه الأسطورة بطرائق مختلفة ، فرأى فيها بعضهم أنَّ الحبَّ لا بدَّ أن يفتك بالمحبِّ والمحبوب معاً .
وكان آخر تأويل إنكار استغلال الفقير ورأى في ذلك صراعاً بين رأس المال وبين العمل . الأصل .
قلت : وقد نقل الملحمة إلى العربية المرحوم محمد فريد أبو حديد ، وانظر كذلك (مختارات من الشعر الفارسي) د . محمد غنيمي هلال ، الدار القومية للطباعة والنشر=

والـــذي يجعـــل القَلَنْـــدَرَ حـــرًّا ... أنَّـــه لا يخـــاف للســـرِّ نشـــرا
لســـتُ عـــن متعـــةٍ أمـــزِّق ثـــوبـــي ... تلـــك أســـرارُنـــا وليـــس وســـاوسْ
طمعـــي الفـــردُ والمطـــامـــع كُثْـــرٌ ... هَبَّـــةُ الفِكْـــر مـــن رُقـــاد المـــدارسْ
رأيُ غـــانـــدي إنْ كنـــتَ غيـــرَ قـــويٍّ ... غيـــرُ مجـــدٍ فـــي ملَّتـــي واعتقـــادي
ليـــس إلا عصـــا الكليـــمِ لسحـــرٍ ... بـــرهمـــيٍّ مشعـــوذٍ فـــي البـــلادِ

(٥١)

إقبـــالُ تُحـــزِنُـــه المـــلائكـــةُ الَّتـــي ... عـــابـــت أمـــام الله جـــرأة صَـــرْخَتِـــه
وقـــحٌ يُهَنِّـــك للطبيعـــة ســـرَّهْ ... ويجمِّـــل الـــدنيـــا بلـــؤلـــؤِ نَظْـــرَتِـــهْ
لا ينتمـــي لـــلأرض وهـــو سليلُهـــا ... لا الشَّـــامُ مـــوطنُـــه ولا قـــاشـــانُ
مُتَعـــدِّدُ الأوصـــاف فـــي قـــدراتـــه ... ملـــكٌ وفـــي رغبـــاتـــه إنســـانُ
قَلِـــقٌ ريـــاحُ الخـــدِّ تمـــلأ صـــدره ... ويعيقـــه بستـــانُـــه المتنـــاهـــي
فـي ظـلِّ مـذهبـه المـلائكـةُ اهتـدتْ ... لطـــريـــقِ آدم فـــي رحـــابِ الله

(٥٢)

لُعْبـــةُ النَّـــرْدِ لـــم تكـــنْ دونَ نـــردٍ ... أرنـــي مظهـــراً لِتِلْـــكَ المغـــازي
خمـــرةُ القـــومِ لا تُنَـــالُ بِبَحْـــثٍ ... فـــازَ رومـــيٌّ بهـــا وأخْفَـــقَ رازي
كـــأسُ جمشيـــدَ لمعُهـــا فـــي دوامٍ ... أيُّ ملكيـــةٍ بـــلا شعـــوذاتِ
ليـس قلبـي وليـس قلبُـك فـابحـثْ ... إن تمكَّنْـتَ فـي صُـدورِ الفِتـاتِ
ليـــس للعـــاجـــزِ الضَّعيـــفِ حيـــاةٌ ... ودواءُ الضَّعيـــف ذوقُ العبـــادهْ
لا تقلْ في الصَّلاة : وجهت وجهي ... فصَـلاتـي كمـا صـلاتُـك عـادهْ
نحـــن سجَّـــادةٌ لـــه حـــركـــاتٌ ... فـــوق سَجَّـــادةٍ بغيـــر حـــراكِ
إنَّ حـــربـــاً أبطـــالُهـــا نحـــنُ حـــربٌ ... تُعْلـنُ النَّصـر قَبْـلَ بـدءِ العِـراك !!

* * *

= ص٣٥٧ (القاهرة) .

لغـــةُ التُّـــركِ والعَـــرَبْ عـــذبـــةٌ ملـــؤهـــا الطَّـــرَبْ
لكـــن الحـــبَّ لـــم يكـــنْ ملـــكُ تـــركٍ ولا عَـــرَبْ
حَسْبُـــهُ البعـــدُ عنهمـــا حَسْبُـــه كنـــزُه الـــدَّفينُ
حَسْبُـــهُ الحُـــبُّ إنَّـــه لهجـــة النَّـــاس أجمعيـــنْ
نحـــتُ أصنـــامِ آزرٍ صَنْعَـــةُ العـــاجـــزِ الـــذَّليـــلْ
والـــذي يطلـــب العُـــلا حَسْبُـــه صَنْعَـــةُ الخليـــلْ
لســـت نقعـــاً مجـــرَّداً إنَّـــك النَّجْـــمُ والمـــدارْ
مـــن جنـــونٍ مثـــابـــرٍ ذلـــك النَّقْـــعُ والغُبَـــارْ

* * *

(٥٣)

دوَّى النِّـداءُ على القـوافـلِ معلنـاً بـدءَ المسيـرِ فَقُـمْ مـع الرُّكبـانِ
أواهُ مـاذا يفعـلُ السَّـاري الَّـذي يتـوقَّـع التَّـرْحـال كـلَّ أوانِ
انهـضْ فَخَمْـرُك لا تنـاسـب هـاهنـا ديـراً وعصـرُك غيـرُ طبعِـك فـانِ
سِيَّـان كـانَ القَلْـبُ عبـداً طـائعـاً أو لـم يـدعْ للعقـلِ مـنْ سُلْطـانِ
فـالـدَّربُ يـا هـذا المسـافـرُ صعبـةٌ وطـويلـةٌ وكثيـرةُ الأشْجـانِ

* * *

(٥٤)

نَفَسـي يُـؤجِّـجُ نـارَ وَرْدَتِـك الَّتـي خَمَـدَتْ لـواعجُهـا على الأغصـانِ
لـم يهـدأ البستـانُ منـذ أتيتُـهُ فـانظـر لآثـاري مـدى البُستـانِ
أيقظـتُ قلـبَ العـارفيـن بِصَـدْرِهـم وهَتَكْـتُ للبُسطـاء سـرَّ الحـانِ
ووهبـتُ للجيليـن ذوقَ لهيبهـم ومـلأتُ أنفُسَهـم بـرشـحِ دِنـانـي
أنـا أعجمـيُّ الحـبِّ إلا أنَّنـي أطلقتُ في الحَرَمِ الشريفِ لِسَاني
كـمْ ثـوبِ إحـرامٍ علـى متضـرِّع مـزقْتُـه بـاللَّحـن مـن ألحـانـي

متلطخٌ قلبي بنظرةِ عادلٍ ... بسهامِ سيدنا الحُسين رماني
في الشَّام أم في الكوفةِ النَّرْدُ الَّذي ... كانا على شقَّيْه يختصمان
أخشى يكونُ كلاهُما متعثراً ... فالنَّرد هذا ماله شقَّانِ
لِمَ تعجبون لمسلمٍ متحرِّقٍ ... ورداؤه قطعٌ من الأحزانِ
فقرُ الجُنَيْدِ وملْكُ سنجارٍ به ... وجنونُ طيفور الطَّليقِ العاني
بالرُّغمِ ممَّا قُلْتُ قبحي ظاهرٌ ... تأذَّى به عيناك حين تراني

(٥٥)

هذا الهلالُ بصدقِه يتسامى ... أبداً يريدُ الكرَّ والإقداما
لولا تجاوزه لكلِّ وجوهه ... ما كان في فَلَكِ السَّماء إماما
لا تفتحُ الأنسامُ بُرْعمَ وردةٍ ... بلهاءَ عن شمسِ الصَّباح تحيدُ
طهرُ العيونِ هو الحقيقة كلُّها ... والقَلْبُ في حِضْنِ العيونِ مريدُ
هذي الشَّقائقُ تَحْرِقُ القلبَ ارتمتْ ... في الحَقْل ما احتملت سيوفَ سنابلِهْ
كوقائع (الغوري) و(أيبك)[1] عُطّلاً ... ونشيد (خسرو) في قلوب بلابلِهْ

(٥٦)

يا أيُّها الإنسانُ كُنْ يَقِظاً فَدَرْبُك في السَّماءْ
لا ترمِ نَفْسَك خَلْفَ هذا الصُّبْح أو ذاكَ المساءْ
الدَّرْبُ ذلك ماله زمنٌ ليأسفَ ركبُهُ
ومَنِ الَّذي يدري ويَعْرِف أين تَنْشَبُ حربُهُ
لا سرَّ ينبضُ في التسكُّعِ والتمحُّل واليقين
فوق المواخرِ والمساجدِ والكنائسِ أجمعين

---

(١) هو قطب الدين أيبك المتوفى سنة (١٢١٠م) مؤسس سلالة المماليك الأتراك ، أولى سلالات سلطنة دهلي بنى مناراً عالياً يُسَمَّى اليوم بـ « قطب المنار » (وهي من أهم الآثار الإسلامية في الهند) وخلفه التمش .

اللـــؤلـــؤُ الفـــردُ الَّـــذي قـــد نـــدَّ عـــن صـــدرِ المَحَـــارهْ
مجـــلاهُ فـــي دَمْـــعِ الصَّبـــاح وليـــس فـــي خِـــدَعِ الحضـــارهْ
القـــرمـــزيُّ الخـــدُّ لا يحتـــاج مسحـــوقـــاً يبـــاعْ
والعـــازفُ المـــوهـــوبُ لا يـــرضـــى بـــألحـــان الـــزُّعـــاعْ
ألحـــانُ هـــذا العصـــر يلـــزمهـــا الكثيـــر مـــن الـــذَّكـــاء
إذْ طـــالمـــا الصَّـــوتُ الـــذي فـــي الســـرِّ يخطـــىء فـــي الغِنـــاء

(٥٧)

يَمَّمْـتُ مـدرسـةَ الأسـود رأيتُهـا تبكـي أبـاطـرة الـزَّمـانِ الـذَّاهـب
جارتْ عليها الحادثاتُ فأصبحتْ مـرعـىً لخـرفـانٍ ووكـرَ ثعـالـبِ
مـا للقـوافـلِ مـنْ يقـود رِكـابَهـا بحـوارِ مـوسـى فـي رحـاب الله
مـن أيـن للعصفـورِ ذوقُ نشيـده والجمـع سـاهٍ والمـردِّدُ لاهِ
لآهٍ لأنفـاسٍ مَضَـتْ وكـأنَّهـا طيـفٌ ومـرَّ بـذلـك البُستـانِ
وهـي الَّتـي أذكـت لهيـبَ جمـالـه وهـي التـي روَّتـه بـالألحـان
فـي ليـلِ دهشتـه هنـاك وَوَجْـدِه ظلمـاتُ تـاريـخٍ يُكَـرِّرُ نفسَـهُ
هـل دهشـةٌ أخـرى ووَجْـدٌ آخـرٌ يـروي حقيقَتَـهُ ويمـلأ كَـأسَـهُ
جُـرحـي تـألَّـق كـالبـروق بليلهـمِ ليـروا حقيقـةَ هـذه الحسنـاءِ
وليعلـم الغُـربـاءُ ليسـت فجـةً ثمـراتُ هـذا السَّيـرِ فـي الصَّحـراءِ

(٥٨)

أتَـذْكُـر البيـت الَّـذي قـد قـالـه سلمان[1] ذاك الشاعِرُ الحرُّ الأمين
(سيظـلُّ عـالمنـا بـرُغْـمِ صعـابِـه (سيظلُّ) مفتوحاً أمام العاملين)
البحـثُ يلـزمـه مـواهـبُ بـاشـقٍ وفـؤادُ ليـثٍ لا يخـاف جـروحـا

---

(١) هو مسعود سعد سلمان : شاعر فارسي مشهور ، ربما وُلد في لاهور في العهد الغزنوي (إقبال) .

من غيرِ معرفةٍ وغير قراءةٍ ... يجدُ الشُّجاعُ طريقه مفتوحا
دعْ عَنْكَ طاووساً يتيه وبلبلاً ... يَشْدُو فليسَ السرُّ في الاثنينِ
السرُّ ليس بنغمةٍ وبصورةٍ ... السرُّ في سَمْعٍ ورقةِ عينِ

(٥٩)

المعرفة أم التجرد

ليس يقوى على القَلَنْدَر دهرٌ ... قلبُه تحت عَرْشِه مُسْتَقَرُّهُ
سرُّه ليس في العُلوم ولكنْ ... علمُه بالتجرُّد الحقِّ سرُّهُ ؟
هي ترمي لصَقْلِ عَقْلٍ وفكرٍ ... وهو يرمي لصَوْغِ عينٍ وقَلْبِ
هو دربٌ بذاته مُسْتَقِلٌّ ... وهي بحثٌ على مجرَّد دَرْبِ
هو عند الصِّعاب عيسى وموسى ... وهي للنَّاس فيلسوفٌ وقاضِ
هو لِلسرِّ والبصيرة روحٌ ... وهي ليست سِوى أقاويلَ ماضِ
هو سكرانٌ بالفضيلة سارٍ ... وهي سكرانةٌ بِخَمْر الرَّذيلهْ
مُطْلَقُ السُّكر في الحقيقةِ حالٌ ... ليس فيه رذيلةٌ وفضيلهْ
الذي يقتضي التجرُّدَ شيءٌ ... ليس سِيَّان والذي يقتضيها
نظرةُ النَّفي لِلْقَلَنْدَرِ سيفٌ ... طَبَعَتْهُ الذَّات الَّتي يقتفيها
واحدٌ من جنودِها الحقّ يُغْني ... عن جيوشٍ تخاف وَهْمَ الفَناء
وإذا المرءُ كان صاحبَ قلبٍ ... كَسَرَتْ عينُه مرايا السَّماء

(٦٠)

وقف الجميعُ يعارِضون ندائي ... لم يُجْمِعوا إلّا على إقصائي
ذهبوا مع الصَّحراء خَلْفَ جنونهم ... وبقيتُ مجنوناً بلا صحراء
حمداً لِمَنْ رَحِمَ العباد فأسْدِلَتْ ... أستارُ كعبتنا بوجهِ صياحي
وبقيتُ وحدي مرةً أخرى وَقَدْ ... طافتْ على الحَرَمِ الشريفِ جِراحي
فقهاؤنا وقفوا بصوتٍ واحدٍ ... دوني وما حاروا بأيِّ جوابِ

لا مثلَ أفلاطونَ بين حضورِه ... وغيابِه والسَّلبِ والإيجاب
كانت رجالُ الفِكْرِ تَنْبُضُ جرأةً ... وحميَّةً أوحتْ بها الأعرافُ
نفسٌ إذا القرآنُ ما انتفعتْ به ... لا الكشفُ يَنْفَعُها ولا الكشَّافُ
إنْ كُنْتَ منْ وهمٍ بشيءٍ مفرحٍ ... تأسى فإنَّك في السَّفينةِ تَغْرَقُ
في خمرِ أوربَّة شُعاعٌ ذائبٌ ... بالرُّغْمِ من أكدارها يتألَّقُ

(٦١)

عجباً من مغامراتِ ذكيٍّ ... جعل الوَجْدَ والتعقُّلَ دربا
لم تزل حولَه المواجدُ حتَّى ... تركتْهُ في ساحةِ الحبِّ نَهْبَا
كيفَ ناحَتْ حمامةُ الأيكِ قربي ... ثمَّ كانتْ عَذُولَه ورقيبَهْ
إنَّني مدركٌ إلى أينَ يمضي ... مخفلٌ يُرْبِكُ الضميرُ خطيبَهْ
قيل إن الأتراك بالشِّعر أدرى ... فأقرئوهم من شِعْر إقبال بيتا
(لا يكون القويُّ جارَ ضعيف ... كلُّ ما في يديه لولا وَلَيْتَ)
ما طقوسُ المساجدِ اليومَ ؟ ظلمٌ ... وانتهاكٌ لحرمةِ السَّاجدينَا
ما سلوكُ الكنائس اليومَ ؟ سوقٌ ... لوجوه الرُّهبان والسَّالكينَا
في ردائي الَّذي تمزَّق سرٌّ ... من بقايا الأسرار يُكْشفُ بعدي
لا يليقُ الجنونُ فالعصر هذا ... ليس عصراً لذي جنونٍ وَوَجْدِ
أضِع النَّفس في البحار وغامِرْ ... ثم غُصْ في البحار واعثُرْ عليها
وأَقِمْ بين ضجَّةٍ وتَلَوٍّ ... ليس من شاطىءٍ يقودُ إليها
هل لمثلي مِنَ الفضاء نصيبٌ ... منْ تُراني أنا وما جنسي ؟!
جئتُ للأرضِ ؟ أم تخلَّقْتُ منها ؟ ... قفصي الكونُ ؟ أم نهايةُ نفسي ؟
كَمْ تَعَثَّرْتُ في متاهاتِ ذاتي ... وكأنِّي في أرضِ ذاتي دخيلُ
بين نفسي منَ الخصامِ وبيني ... سهرٌ دائمٌ وليلٌ طويلُ
قصَّةُ الحبِّ ألفُ نقشٍ ولونٍ ... وغِنائي أشدُّ نقشاً ولونا
تارةً أملأُ الحياةَ وِصَالاً ... تارةً أطلبُ الفِراق لأفنى

اليقينُ اليقينُ جلسةُ حبٍّ ... من خليلٍ بنارِ نمرودَ يُمْسِكْ
سرُّهُ أنْ تقومَ لله شُكْراً ... وقصاراه أن تلوذَ بِنَفْسِكْ
كعبةُ العُرْبِ أطلقتْ كلَّ لحنٍ ... طافت الفرسُ والمغولُ عليه
كيف تسمو حضارةٌ ليس فيها ... حرمٌ يجمعُ القلوبَ إليه
صوت قيثارتي الَّتي سَمِعوها ... أعجميٌّ لكنَّ لحني حجازي
شَهِدَ الغرب أنَّني غزنويٌّ ... حين جرَّعتُه مصير إيازِ[1]
أيهيمُ الفؤادُ في كلِّ حسنٍ ... أمْ يُغَنِّي لوحده في الزِّحامِ
رُغم أنَّ الزَّمان للقلب غِلٌّ ... لا يذلُّ الزَّمان قلبَ هُمامِ
أيها المسلمُ الذي يشتكيني ... لا تَلُمْني فأنتَ تفضحُ عينَكْ
لا تخفْ من صراحتي في حديثي ... إنَّ هذا الحديث بيني وبينكْ
طيرانُ الأنبياء ليس كهذا ... مالكَ اليوم في السَّماءِ اجتيازُ
ليس يعني إنْ كان جدُّك بازاً ... أنَّك اليوم بالوراثة بازُ
آهِ للمُسلم الذي بات رسماً ... شَغَلَتْه عن الحياة جُدُوْدُه
سألوني فقلت : يوجد ، قالوا : ... أينَ سلطانُه وأينَ وجودُه
لا يبالي الدَّرويشُ عُسرَ طريقٍ ... ويرى العُسْر عونَهُ ونصيرَه
اسألِ اللهَ أن تكونَ بصيراً ... فسلاحُ الدَّرويش نورُ البصيرهْ
إنَّها الذَّاتُ عندما تتجلَّى ... تَنْعُمُ النَّاسُ في ظلال النُّبُوَّه
إنَّها نَفْسَها حجابُ إلهٍ ... عندما تأخذ الكتَاب بقوَّهْ
تَصِلُ الذَّاتُ قابَ قوسين لكنْ ... لا ترى نَفْسَها بعرشٍ وكرسي
كلُّ شيءٍ هناك تُعْرِبُ عنه ... صرخةُ الفَجْرِ في قرارة نفسي
صَنَمُ العَيْنِ كلُّ لونٍ تراه ... يجعلُ الكونَ هيكلاً للعُقولِ

---

(١) كما قصَّ الغزنوي ضفائر إياز التي تنبض إغراءً هكذا فعل إقبال بضفائر أوروبة فعاد منها وقلبه في صدره وفي يده قصاصة شعرها منادياً .
إن الحسن الذي يمكن للمقص أن يزلزله لا يستحق أن يكون كعبة للقلوب .

مُمْكِنٌ أنتَ أنْ تكونَ خليلاً ... في صُراخِ الصَّباحِ بعد الأفولِ
فيمَ هذا المُحبُّ يَعْبَثُ سُكْراً ... بحبالِ الصَّيْدِ الَّتي أوقعته
لم تَزِدْهُ الشِّباكُ إلا حُبُوراً ... وكأنَّ الشِّباكَ قد أطلقته
عِلْمُ رازيْ تَهَوُّرٌ وانحدارٌ ... وحياةُ القلوب علمُ القَلَنْدَرْ
قِمَّةُ السُّكْرِ والمحبَّةُ تبدو ... في السُّلوك الذي يمتُّ لِحَيْدَرْ
أينَ منْ أطلقَ الحياةَ بعقلي ؟ ... أينَ ذاكَ الَّذي أبادَ حَصَادي
هو في عُزْلةِ الفؤاد مقيمٌ ... وسؤالي الوحيدُ أينَ فؤادي ؟
أنا لا أركبُ الهوادجَ هذي ... أنا لا أمتطي الرِّكابَ دليلا
أرشدُ الرَّكبَ للطريق وأمضي ... لستُ عمَّا يُفَتِّشون بديلا
حطبُ المَوْقِدِ الغليظِ مُمِلٌّ ... وأنا رغبتي بحرق الدِّقاقِ
أنا لا أمْنَحُ الحصادَ لحقلٍ ... عملي الفردُ والوحيدُ احتراقي
قد تنفَّسْتُ ليس من نارِ قلبٍ ... نفساً بارداً أهاجَ رمادا
شعلةُ الفِكْرِ للطَّريق ضياءٌ ... ودليلٌ له ولَيْسَ مُرادا
أرضُنا هذه لطُهْرِك تهفو ... أنتَ برهانها وأنتَ هُداها
قلبُك المطمئنُّ قبضةُ نورٍ ... مَنَحتْ أعْيُنَ السَّماء مداها
عن يدِ الله طِرْتَ لا عن غباءٍ ... أنتَ شاهينُه وأنتَ رسولُه
ولكَ الحُوْرُ والملائكُ صَيْدٌ ... ذاك دينٌ وليس شعراً أقولُه
أتُرىٰ ما لِلْمُسْلمين نصيبٌ ... من جنونِ الحبِّ الَّذي أطلقوه
دمُهم كان للشُّعوب مناراً ... ثمَّ هُمْ في ظلامهم أهرقوه
ذاك أنَّ الضُّلوعَ خارتْ قُواها ... لم يعد بينها لهيبٌ يصولُ
سجداتٌ رتيبةٌ في خمولٍ ... وصفوفٌ مُعوجةٌ وذُهولُ
أيُّها المسلمُ المثابرُ يرجو ... ثوبَ تقواه كنْ نسيجَ حياتِك
كنْ وحيداً ووحِّدِ الله واكشِفْ ... سِحْرَ ألوانِنا بقوَّة ذاتِك
كُنْ كما الموجُ كلَّ حينٍ تراهُ ... يدرسُ الشاطىءَ الَّذي يبتغيه
انتزعْ من يديه ثوبَك وارجِعْ ... لا تغرَّنَّك الإقامةُ فيه

النَّـدى شـفَّ عـن صُـدور ورودٍ ... ليـس فيهـا مـن الخـلاعـة كُـفءْ
فـوَّر الخضـرةَ النسيـمُ صبـاحـاً ... فـورةً مـا لهـا هُنـالِـكَ دِفْءُ
احمـرارُ الشَّقيـق صـورةُ نـارٍ ... ضـاعَ فـي غمـرةِ الحيـاةِ فـؤادُهْ
شعلـةُ العقـلِ للمسـافـرِ عـونٌ ... والَّـذي يُلهِـبُ الطَّـريـقَ مُـرادُهْ
مـا هـو العقـلُ ؟ إنَّـه ليـس إلَّا ... نـارَ مصبـاحنـا بهـذا الطـريـقِ
وضجيـجُ الطَّـريـق مـنْ فعـلِ قلـبٍ ... ليـس للعقـلِ مِنْـهُ غيـرَ بـريـقِ

* * *

القسم الثالث

في مسجد قرطبة

وقف محمد إقبال ـ في عام ١٩٣٢م ، الذي زار فيه إسبانيا ، ذلك الفردوس المفقود ـ في جامع قرطبة العظيم وقفة مؤمن شاعر ، وقفة خاشع أمام الإيمان ، الذي جاء بهذه الحفنة المؤمنة العربية التي كان يقودها صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، وأخضع هذه البلاد النائية الجميلة لعقيدته وعزمه ، وقفة خاشع أمام العاطفة القوية ، والحبِّ الطاهر ؛ الذي حمله على بناء هذا المسجد العظيم الذي أسس على التقوى ، خاشع أمام العبقرية المعمارية التي أنتجت هذا الأثر البنائي الخالد ، وأمام الفنِّ الإسلاميِّ العربيِّ الذي ظهر في تصميمه الحكيم ، وبساطته الرائعة ، وجماله الفريد ، وأثار كلُّ ذلك إيمانه وشاعريته ، ورأى أنَّ هذا المسجد العظيم صورةٌ للمسلم في هذه الأرض الحنون ، تجلَّت فيه أخلاق المسلم وصفاته ، علوٌ في الهمَّة ، واتساعٌ في القلب ، وبساطةٌ في المظهر ، وبراءةٌ في النية ، وثباتٌ على الحقِّ ، وإعلانٌ للعقيدة والمبدأ ، وجمعٌ بين الجمال والجلال ، والأنفة والتواضع .

وتذكَّر بهذا المسجد أهله الذين رفعوه وشادوه ، وتذكَّر بهم العقيدة التي كانوا يدينون بها ، ورسالتهم التي كانوا يعيشون لها ، تذكر ـ والشيء بالشيء يذكر ـ بهذا المسجد ذلك الأذان الذي كان يدوِّي في الجوِّ ، وكان أول ما يسمعه الناس وآخر ما يسمعونه ، ذلك الأذان الذي انفردت به هذه الأمة ، فليس له نظيرٌ في الأصوات ، والهتافات ، والإعلانات ، والرسالات ، ذلك الأذان الذي كان يخشع له الكون ، ويضطرب له العالم ، وتزلزل به أوكارُ الفساد ، ذلك الأذان الذي تنفَّس له الصبح الصادق في العالم ، في القرن السادس المسيحي ،

وانطلقت موجةٌ من نور ، عاشت بها الدنيا وما بين العالم اليوم وبين الصبح الصَّادق إلا هذا الأذان الصَّادق الذي ينادي به المؤمن الصادق .

وتذكر بهذا الأذان الرسالة السامية السَّماوية ، التي يحملها ويبلغها هذا الأذان في الآفاق ، والمعاني السامية البليغة التي يتضمَّنها ، وامتلأ إيماناً ويقيناً بأنَّ الأمَّة التي تدين بهذه العقيدة ، وتعيش بهذه الرسالة ـ التي كتب لها الخلود ـ لا تموت ولا تفنى .

حرَّك هذا المنظرُ الرائعُ ، وهذا الأثرُ التاريخيُّ ، وهذا المسجدُ الغريبُ الفريدُ الذي لم يعرف منبره الخطبة ، ولا بلاطه السجود ، ولم تعرف منائره الرفيعة الأذان منذ قرون ، حرَّك كل ذلك في إقبال الإيمان والحنان ، والأحزان والأشجان ، وجادت قريحته الوقادة بهذه القصيدة الخالدة التي أسماها « في جامع قرطبة » وقد كتبها في إسبانيا ، وأكثرها في قرطبة .

ذكر محمد إقبال أنَّ هذا العالم خاضعٌ للفناء، وأنَّ الآثار التي تخلفها الأجيال، وأنَّ البدائع الفنية التي تنتجها العبقريةُ الإنسانيةُ بين حينٍ وآخر ، كتب لها الاضمحلالُ والاندثارُ ، ولا يعيش بين تلك الآثار والمنتجات إلا ذلك الأثر الذي أكمله عبدٌ مخلص لله ، وأضفى عليه حيويته وخلوده ؛ لأنَّ عمله يستمدُّ الحياة والنور من عاطفته المؤمنة ، ومن حبِّه القويِّ الخالص[1] ـ والحب هو أصل الحياة الذي حرم الله عليه الموت ـ إنَّ الدهر سريعٌ ، ورفيقٌ في سيره ، وهو تيارٌ عنيفٌ لا يقف في طريقه شيء ، والحبُّ هو القوة الوحيدة التي لا تقاوم لأنه سيل ، والسيل لا يمسكه إلا السيل ، إنَّ الحبَّ غيرُ خاضع للنظام الرياضي المرسوم ، فله عصورٌ ليس لها اسم في لغتنا ، الحبُّ هو الذي تجلَّى في الرسالات السماوية ، وفي الأخلاق النبوية ، وهو الذي أفاض على الكون النُّور

---

(١) الحب أو « العشق » كما يسميه إقبال هي العاطفة التي تسمو على المادة والمعدة ، وهي حقيقة جامعة بين الإيمان والحنان ، ولا صلة له بالغرام والعاطفة الجنسية .

والسُّرور ونشوةَ الخمور ، التي سكر بها العارفون ، وتغنى بها المحبون ، الحبُّ قد يقف إماماً في المحراب ، وحكيماً يمسك بيده الكتاب ، وقد يقود الجنود ويهزم الأحزاب، فله أطوار وأدوار ، وهو رحالةٌ لا يزال في سير وانتقال ، وحلٌّ وترحال، له منازل ومقامات يمرُّ بها ويخلفها وراءه، هو الذي أطلق قيثارة الحياة فانطلقت منها نغمات وأناشيد ، وهو الذي استمدت منه الحياة نورها ونارها .

ثم يلتفت الشاعرُ العظيم إلى مسجد قرطبة ، ويقول له : « **تدين أيها المسجد العظيم ! في وجودك لهذا الحب البريء ، ولهذه العاطفة القوية ، التي كتب لها الخلود فهي لا تعرف الزوال والانقراض ، إنَّ البدائع الفنية إذا لم ترافقها العاطفة ، ولم يسقها دم القلب ـ الحب ـ أصبحت مصنوعات سطحية من لونٍ ، أو قرميدٍ ، أو حجرٍ ، أو لفظةٍ ، أو كتابةٍ ، أو صوتٍ ، لا حياة فيها ولا روح ، إنَّ المعجزات الفنية لا تعيش إلا بالحبِّ ، ولا تقوم إلا على العاطفة والإخلاص ، الحبُّ هو الذي يفرق بين قطعةٍ من حجر ، وقلبٍ خفَّاقٍ حنونٍ للبشر ، فإذا فاضت منه قطرة على الحجارة الصمَّاء خفقت وعاشت ، وإذا تجرَّدت منه القلوب الإنسانية جمدت وماتت** » .

ويقول في عقيدة مؤمنٍ ، ودلال شاعرٍ محب : « **إن بيني وبينك أيها المسجد العظيم ! نسباً في الإيمان والحنان ، وتحريك العاطفة وإثارة الأحزان ، إنَّ الإنسان في تكوينه وخلقه قبضةٌ من طينٍ لا تخرج من هذا العالم ، ولكن له صدراً لا يقل عن العرش كرامةً وسمواً ، فقد أشرق بنور ربه ، وحمل أمانة الله ، إنَّ الملائكة تمتاز بالسجود الدائم ، ولكن من أين لهم تلك اللَّوعة واللَّذة التي امتاز بها سجود الإنسان ؟!** .

وهنا يتذكر محمد إقبال جنسيته ووطنيته ، ويتذكَّر أنَّه هنديُّ النجار ، وأنه من إحدى بيوتات « البراهمة »[1] ، ويتذكَّر أنَّه أمام أثر إسلاميٍّ عربيٍّ صميمٍ

---

(١) أصله من سلالة برهمية كشميرية تسمى « سبرو » أسلم جده الأعلى قبل مئتي سنة .

قديمٍ ، فيقول : « **انظر أيها المسجد ! إلى هذا الهندي ـ الذي نشأ بعيداً عن مركز الإسلام ومهد العروبة ، نشأ بين الكفار وعباد الأصنام ـ كيف غمر قلبَه الحبُّ والحنان ، وكيف فاض قلبُه ولسانُه بالصلاة على نبي الرحمة ، الذي يرجع إليه الفضل في وجودك ، كيف ملكه الشوق ، وكيف سرى في جسمه ومشاعره التوحيدُ والإيمان** » .

ويذكره هذا المسجد العظيم بالمسلم العظيم الذي رفعه وشاده ، وبالأمَّة الإسلامية العظيمة التي تعبد الله في أمثال هذا البيت ، فيرى أنه صورةٌ صادقةٌ للمسلم ، فكلاهما يجمع بين الجلال والجمال ، وكلاهما محكمُ البنيان ، كثيرُ الفروع والأغصان ، ويلتفت إلى المسجد فيراه قائماً على أعمدة كثيرة ، تشبه في كثرتها وعلوها نخلاً في بادية العرب ، ويرى شرفاته مشرقةً بنور ربها ، ومنارته العالية الذاهبة في السماء منزلاً للملائكة ، ومهبطاً للرحمة الإلهية ، وهنا يقول في إيمان وثقة : « **إن المسلم حيٌّ خالد ، لا يزول ، ولا ينقرض ؛ لأنه يبلغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها إبراهيم ، وموسى ، وجاء بها النبيون ، وقد قضى الله بخلودها وبقائها ، فكيف تنقرض الأمة التي حملت هذه الأمانة ، وتكفَّلت بتبليغ هذه الرسالة !** » .

وينطلق الشاعر العظيم في وصف هذه الأمَّة التي يمثلها هذا المسجد ، الذي لا يعرف الفوارق الوطنية ، والحدود الجغرافية الضيقة ، فيقول : « **إنَّ المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف أفقه الثغور ، وقد وسعت عاطفته ورسالته ومملكته الشرق والغرب ، فليست دجلة في العراق ، ودانوب في أوربة ، والنيل في مصر ، إلا موجةً صغيرةً في بحره الواسع ومحيطه الأعظم ، إنَّ له عصوراً في التاريخ لا يقضى منها العجب ، وله حكاياتٌ ومواقفُ في البطولة لا تزال موضع الدهشة والاستغراب ، هو الذي أمر العصر العتيق ـ العصر الجاهلي ـ بالرَّحيل ، وافتتح العصر الجديد ، إنَّه إمام رجال الحبِّ والعاطفة ، وفارس ميدان الإيمان والحنان ، لسانُه لبنٌ وعسل ، وسيفه علقمٌ وحنظل ، يعيش في ميدان الحرب**

وتحت ظلال السيوف متذرعاً بالتَّوحيد ، كلما اشتد به الخطب وعضته الحرب التجأ إلى إيمانه واعتماده على الله » .

ويقبل على المسجد يتحدَّث إليه ، ويناجيه ، ويقول : « لقد كشفت أيها المسجد العظيم ! عن سرِّ المؤمن ، ومثلته في العالم ، وصورت ذلك الاضطراب الذي يقضي فيه نهاره ، والرقة التي يمضي فيها ليله ، صوَّرت للعالم مقامه الرفيع ، وتفكيره السَّامي ، ومسراتِه وأشواقَه ، وتواضعَه ودلالَه » .

ويقبل على المؤمن بهذه المناسبة ، فيصف سموَّه ، وأخلاقه ، وسيرته في العالم ، فيقول : « إنَّ يد المؤمن هي جارحةُ القدرة الإلهية ، فهي غلاَّبةٌ ، فتَّاحةٌ ، قاهرةٌ ، ناصرةٌ ، أصله من تراب ، وفطرته من نور ، عبدٌ تخلَّق بأخلاق الله ، واستغنى عن العالمين ، آماله ومطامعه قليلةٌ ، وأهدافه ومطامحه رفيعةٌ جليلة ، ألقي عليه الحب ، وكسي المهابة والجمال ، دقيقٌ رقيقٌ في الحديث ، قويٌّ نشيطٌ في الكفاح ، نزيهٌ بريءٌ في السلم والحرب ، إنَّ إيمانه هو النقطة الدائرة التي يدور حولها العالم ، وكل ما عداه وهمٌ وطلسمٌ ومجازٌ ، إنَّه الغاية التي يصل إليها العقل ، ولبُّ لباب الإيمان والحبِّ ، وبه نالت هذه الحياة بهجتها وقوتها » .

ويقبل مرةً ثانيةً على المسجد ، فيخاطبه في إجلال وإكبار ، ويقول : « يا مثابةَ هواة الفنِّ ! ويا مقصدَ روَّاد الجمال ! ويا مجد الدين الإسلامي ! لقد سمت بك أرض الأندلس ، وتقدَّست في أعين المسلمين ، إنَّك فريدٌ في الفنِّ والجمال ، لا يوجد لك نظير تحت السماء إلا في قلب المؤمن ، أين لنا أولئك الرجال ، هؤلاء الفرسان العرب ، أصحاب الخلق العظيم ، وأصحاب الصدق واليقين ، الذين برهنت حكومتهم على أنَّ حكومة أهل القلوب خدمةٌ وزهادة ، وليست حكماً ولا ملكاً ، هؤلاء العرب المسلمون الذي كانوا مربي الشرق والغرب ، وكانوا أصحابَ عقولٍ حصيفةٍ وبصيرةٍ نافذة ، يوم كانت أوربة تتسكع في الجهل المطبق ، والظلام الحالك ، والذين لا تزال في الشعب الإسباني

بفضل دمهم العربي ، خفةُ روح ، وحفاوةٌ ، وبساطةٌ ، وجمالٌ شرقيٌّ ، فتكثر فيهم عيون المها ، ولا تزال عيونهم ترشق بالنبال ، ولا تزال الريح في الوادي تحمل نفحات اليمن ، ورنات الحجاز » .

ثم يخاطب إسبانيا ـ الأندلس الإسلامي المغصوب ـ فيتغنَّى بأرضها التي تطاولت السماء سمواً ورفعة ، ويتوجع على أنَّ أجواءها لم تسمع الأذان من قرون ، ثم يذكر ما مر على العالم المتمدن من تقلبات وثورات ، ويتشوَّق إلى ثورةٍ جديدة ، مركزها الشرق الإسلامي ، فيقول : « لقد شهدت ألمانيا ثورة الإصلاح الديني التي عفت الآثار القديمة والتقاليد العتيقة في أوربة ، فجحدت أوربة المسيحية عصمة القسوس والباباوات ، وتحرَّر الفكر الأوربي ، وتحرَّكت سفينته في يسرٍ وسهولة ، وشهدت فرنسا الثورة الكبيرة التي اضطربت لها أوربة اضطراباً ، وأصبح الشعب الطلياني ـ الرومي ـ شاباً فتياً بلذة التجديد[1] ، هكذا الرُّوح الإسلامية مضطربةٌ قلقةٌ ، تطلب انتفاضةً جديدة ، ولكن متى ذلك ؟ إنَّه سرٌّ من أسرار الله ، لا يفصح به اللسان ، والعالم يتمخَّض بحوادثَ جسام ، فلا يستطيع أحد أن يتكهَّن بالمستقبل » ، ويخاطب نهر قرطبة « الوادي الكبير » ويقول : « إن على شاطئك أيها النهر العزيز ! رجلاً يرى حلماً لذيذاً ، يرى في مرآة المستقبل عصراً لا يزال في طيَّات الغيب ، يرى عصراً قد بدت تباشيره ، وظهرت طلائعه لعينه ، ولكنَّها لا تزال محجوبةً عن أعين الناس ، لو كشفت الغطاء عن وجه هذا العالم الجديد ، وبحت ما في صدري من أفكار وأسرار ؛ لشقَّ ذلك على أوربة ، وفقدت رشدها ، وجنَّ جنونها » .

ثم يعود مرَّةً ثانية ، يشيد بفضل التجديد في حياة الأمم والشعوب ، والحاجة إلى الثورة على الأوضاع الفاسدة ، ويقول : « كلُّ حياة لا تجديد

---

(١) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية ، وقد نفخ موسوليني في الشعب الطلياني روح النخوة والطموح ، والاعتداد بالنفس والقومية الرومية .

فيها ، ولا ثورة أشبه بالموت ، إنَّ الصراع هو حياة روح الأمم ، إنَّ أمةً تحاسب عملها في كل زمان سيفٌ بتَّارٌ في يد القدر ، لا يقاومه شيء ، ولا يقف في وجهه شيء » .

ويختم محمد إقبال قصيدته البديعة ، بكلمةٍ حكيمةٍ مأثورة ، مبنيةٍ على تجاربَ واسعةٍ ، ودراساتٍ عميقةٍ ، واستعراضٍ واسعٍ للأدب ، والشعر ، والفن ، والأفكار ، يقول :

« إنَّ كلَّ مأثرة وكلَّ إنتاجٍ ، لم تذب فيه حشاشة النفس ناقصٌ ، وجديرٌ بالفناء والزوال السريع ، وكلَّ رنةٍ أو نشيدٍ لم يَدْمَ له القلب ، ولم تتألق به النفس قبل أن يصدر ، ضرب من العبث والتسلية ، ولا مستقبل له في المجتمع وعالم الأفكار » .

وهذا هو سرُّ الخلود والبقاء للآداب ، والأفكار ، والإنتاج ، وهذا سرُّ تفاهة الأدب الجديد ، الذي يولد سريعاً ، ويموت سريعاً ، وهذا هو سرُّ التأثير والخلود في شعر إقبال وإنتاجه فهل يسمع أدباؤنا وشعراؤنا[1] ؟

* * *

(نُظمَتْ في مسجد قرطبة)

إنَّ هـــذي الصـــرخـــةَ اليـــومَ التـــي تفضـــحُ أمـــري
صـــرخـــةُ القلـــبِ التـــي خبَّـــأتهـــا طيلـــةَ عُمْـــري
صحبـــــةُ الأطهـــــارِ نـــــورٌ ورضـــــا الله حُبُـــــور
وشقيـــقُ الـــرَّوض كـــاســـاتٌ علـــى النَّهـــر تـــدور
هـــاهنـــا يمكـــن أنْ أذكـــرَ وَعْثَـــاءَ المسيـــرْ
ووضـــوئـــي لِصـــلاتـــي مـــنْ دَمِ القَلْـــبِ الكسيـــرْ

---

(١) من « روائع إقبال » للعلاَّمة أبي الحسن علي الحسني النَّدوي .

مع من يمشي الَّذي يمشي على هذا الطَّريقْ
وأنا إلَّا رجائي ليسَ لي فيه رَفيقْ
أيكونُ القَصْرُ عُشِّي وأنا أكره لونَهْ
أنتَ ذاك العُشُّ والغُصنُ الذي يَسْتُر كونَهُ
أنتَ من أطلقت منْ صدري صراخَ الفَجْر بعثا
لي من التَّوحيد نارٌ تُلْهِبُ العالمَ بحثا
بكَ أنفاسي تغنَّى لكَ تغدو وتروحْ
ذات شجوٍ وحماسٍ ونَدوبٍ وجروحْ
أملي أنت وشُغلي طلبي أنتَ الوحيد
وأنا هذا نصيبي غيرَ هذا لا أُريد
عندما تخطِر قربي تصبحُ الصَّحراءُ بحرا
وإذا لم تكُ في البُستان فالبُستان صحرا
أتمنَّى مرَّةً أخرى ولو جرعةَ كأسِ
علَّ أنْ أخرجَ يوماً منْ طوافي حولَ نفسي
أنا منها في خمارٍ كيفَ لي أشربُ منها
كلُّ حاناتِ الورى حطَّمْتُها في البَحْثِ عنها
أيُّها السَّاقي متى تنظرُ لي عينُ حنانك
ومتى الجمهورُ بالأقداح تروي منْ دِنانك
خلقُك اللَّهمَّ هذا لم يَذُقْ ذوقَ فتوني
وأنا ، إنْ لمْ تبدِّلْه يبدِّلْه جنوني
ما هو العارُ الذي يَلْحقُ هذا الفيلسوف
وهو بالسرِّ الذي خبَّأتَه أنت يطوف ؟!

* * *

نسمةُ الأسحار هذي نفحةُ اللهِ الخبيرْ

في نسيج الرُّوح يجريها كنُسْغٍ في الضَّمير
يصبح الرَّاعي كموسى بتعاليمِ شُعيب
﴿ لا تخف ﴾ سيفٌ فخذها وهْي وحيٌ دون ريب

* * *

مسجد قرطبة

(نظمت في أرض الأندلس وبخاصةٍ في قرطبة)

(١)

ضياءُ الصُّبحِ بعد الليلِ آتٍ (ومن هذين كلُّ الحادثاتِ)
هما في الدَّهر خيطٌ منْ حريرٍ تلوَّن بالحياة وبالمماتِ
هما إيقاعُ أغنيةِ الحِجَابِ ولحنُ الحقِّ في هذي الرِّحاب
على وتر الخُلود لهم نشاطٌ مُلِمٌّ بالقَرار وبالجَواب
وعندهما بكلِّ النَّاسِ علمٌ هما حجرُ المحَكِّ لكلِّ شَعْبِ
فلا تفخرْ بقلبك دون زيفٍ وجرِّب مثلما جَرَّبْتُ قلبي
فإن هو كان زيفُك مثلَ زيفي ولمْ يكُ لي ولا لكَ أيُّ قيمهْ
فعيدُك مثلُ عيدي عيدُ موتٍ وحظُّك مثلُ حظِّي في الوليمه
وما المعنى ليومِك أو ليومي بلا ليلٍ يكون ولا نهار
إذا عبر النُّبوغُ بأرضِ قومٍ تولَّى مثلَ زوبعةِ الغُبار
حكايةُ كوننا وهمٌ وظنٌّ وهذي كلُّ أطوار الحكايهْ
من العَدَمِ البدايةُ أخْرَجتنا وترمينا إلى العَدَمِ النِّهايهْ

(٢)

الموتُ لا يَمْحو رجالَ اللهِ منْ هذا الوجود
الحبُّ في دمهم تلوَّنَ بالثباتِ وبالخلود

مهمـــا يكـــنْ جـــريـــانُ هـــذا العصـــرِ جبَّـــاراً عنيفـــا
فـــالحـــبُّ يَجْـــرُفـــه ولكـــنْ سيلُـــه يَبْـــدُو لطيفـــا
الأمـــسُ والغـــدُ ليـــس وُجْهتَنـــا الَّتـــي نسعـــى إليهـــا
الحـــبُّ أزمنـــةٌ بـــلا أسمـــاءَ نُطلِقُـــه عليهـــا
مـــا الحـــبُّ ؟ مـــا هـــو ؟ إنَّـــه وثبـــاتُ أوقـــاتِ الصَّفـــا
فـــي نفحـــةِ الـــوحـــي الأميـــنِ علـــى فـــؤادِ المصطفـــى
مـــا الحـــبُّ ؟ سكـــرةُ وردةٍ خَلَـــعَ الجمـــالَ عـــذارُهـــا
لَعِـــبَ النَّسيـــمُ بهـــا عليـــه فقطعـــتْ أزرارَهـــا
الحـــبُّ فـــي ســـاحِ الجيـــوشِ هـــو المقـــدَّمُ والنَّبيـــه
والحـــبُّ فـــي الحَـــرَمِ الشَّـــريـــفِ هـــو المشـــرِّعُ والفقيـــه
أســـألْ بـــه متسكِّعـــاً خلْـــفَ الهـــوادجِ والقـــوافـــلْ
بيـــن الألـــوفِ مـــن المنـــازلِ والألـــوفِ مـــن المـــراحـــلْ
الحـــبُّ ليـــسَ مغنِّيـــاً الحـــبُّ إبـــداعُ الأغـــانـــي
أوتـــارُه نـــورُ الحيـــاة وقـــوسُـــه نـــارُ المعـــانـــي

* * *

مسجد قرطبة

(٣) و (٤) و(٥) و(٦)

قصـــرُ التَّـــاريـــخ ومسجـــدُهُ مـــا أروعَ مـــا صَنعـــتْ يـــدهُ
لِلْقَـــوْمِ بِصَـــدْرِ حكـــايتـــه صـــوتٌ مـــا زال يُـــرَدِّدُهُ
ظمـــأٌ لا ريَّ لـــهُ وبـــهِ طلـــبُ الظمـــآنِ ومَقْصِـــدُهُ
يـــزدادُ بـــرؤيتـــه ولهـــاً ويـــريـــدُ يقـــومُ فَيُقْعِـــدُهُ
وكـــأنَّ عـــلائـــقَ زينتـــه خَفَقـــاتُ القَلْـــبِ ومَعْقِـــدُهُ
فـــي الصَّخْـــرِ فنـــونُ ســـرائـــرنـــا بلطـــائفنـــا نتعهَّـــدُهُ

لِيَهِيْجَ رنينُ جوانبه بأنين الرُّوحِ نزوَّدُهُ
يا ظلَّ الغَرْبِ ودوحتَه من ذا تاريخُك يجحده
بكَ أضحتْ تربةُ أندلسٍ حَرَماً في الغربِ نُمجِّده
لاندَّ له في سؤدده إلا الإيمانُ وسؤددهُ
عربيُّ اللَّحن حجازيٌّ روحُ الإسلام تُخلِّدهُ
يمنيُّ العِطْرِ تهبُّ به أنسامُ الشَّام وَتَحْشُدُهُ
نظراتُ ظبائِك لاعبةٌ بسهامِ الحبِّ تكبِّدُهُ
أنا من كفَّارِ الهند وفي نظراتي ما لا تَجْحَدُهُ
وحماسةُ أغنيتي هذي من لحنِ قَلْبِك يُنْشِدُهُ
وصلاةُ الحبِّ على شفتي (وعلى خديكَ توزُّده)
الفتنةُ وجهُكَ يوقدها وأنا أشرحُ ما تُوْقِدُه
توحيدُ اللهِ لنا نورٌ وحياةُ القَلْبِ توحُّدُهُ
لو كلُّ رياحٍ في الدُّنيا اجتمعتْ لا تَقْدِرُ تُخْمِدُهُ
يحكيك جمالاً وجلالاً رجلٌ للهِ تعبُّدهُ
وحماسُ ضحاه وَوَجْدُ مساه وما يخفيه له غدهُ
ومسرَّتُه ومحبَّته وتواضُعُهُ وتودُّده
عذبُ الكلماتِ خفيفُ الرُّوحِ رقيقُ القلبِ مُسَهَّدهُ
أبديُّ الحبِّ نقيُّ الحَرْبِ مصونُ العِرْضِ مهنَّدُه
وعلى يده لله يدٌ بلطيفِ القُدْرَةِ تَعْضُده
العالمُ قصرُ خلافته وسماءُ العَالمِ مَعْبَدُه
سرُّ الكونين بنظرته وعن الكونين تجرُّده
وسرابُ العَصْرِ بنورِ الدِّين ونارِ الحبِّ يُبَدِّدهُ
هو أوَّلُ سرٍّ في الدُّنيا ورجاءُ الكون ومَقْصِدُهُ
هو مِثْلُكَ شاغل عالمه بقديمِ الحُسْنِ يُجَدِّدُهُ

كنخيل الشَّام وأعْمُدِها شَمَخَتْ في المسجدِ أعمُدُه
تتألَّقُ زرقةُ قبَّتِهِ وتقيمُ الليل وتُقْعِدُه
وتَنَهُّدُها في وَحْدتها كالطُّورِ كواهُ تنَهُّدُهُ
بَعَثَتْ جبريلَ منائرُها بجمالِ أنْتَ مُحمَّدُه
نادى إبراهيمَ وموسى لشهودِ هذا مَشْهَدُه

(٧)

إنَّ أرضاً أنتَ فيها لسماءٌ لِلْعُيونْ
كيف لم يسمع أذاناً أهلُها مُنْذُ قرونْ
ليت شعري كيفَ أسرى موكبُ الحبِّ الغَضُوبْ
ليت شعري ما يرى الآن وفي أيِّ الدُّروب
هيَّج الألمانُ حولَ الدِّين إصلاحاً عريقا !
بدَّدَ الأسرارَ لم يتركْ لها بيتاً عتيقا
أصبحتْ منه هباءً عصمةُ الباب العجوزْ
وأفاق الفِكْرُ لا يعرفُ شيئاً لا يجوزْ
منذ أنْ ثارتْ فرنسا بدأ الغرب العِراكا
لمْ تَعُدْ تُبْصرُ فيه بعدها إلا ارتباكا
هي ذي روما التي شاخَتْ على العَهْدِ القديم
تحتسي خمراً جديداً معها البابا نَدِيْم
في فؤادِ المُسْلِمِ اليومَ كهذا الغَليان
هو سرُّ الله عن تبيانه كلَّ اللسان
فارقُبوا منْ ذلكَ الواثبُ في بحر القضاءْ
وارقبوا الكُوبَ الذي يختارُه مَاءُ السَّماءْ

(٨)

تميلُ سحابةُ الوادي فتحكي فيه غطاسا
رمَتْها الشَّمسُ باليواقوتِ أكداساً فأكداسا
وأغنيةُ ابنة الفَلاَّح تُطْربُ رُغْمَ ركَّتها
بِرقَّتها إذا غَنَّت وآهتها وأنَّتها
كأنَّ غناءَها فيضٌ يُقلُّ سفينةَ القلب
تغازلُ نهرَ قُرْطُبَة الذي يذخرُ بالحبِّ
هنالك يَرْتَعُ السَّاري هنالِكَ تَصْدَحُ الورقُ
كأن النَّهر تاريخٌ يغنِّي فوقه الشَّرْقُ
نعمْ ، ما زال عالَمُه الجديدُ يحوطُهُ القَدَرُ
ومثلي ليسَ يُعْجزُه على إدراكِه نَظَرُ
ولو هَتَكْتُ أستاري وأسْفَرَ وجهُ أفكاري
لَكلَّ الغربُ أن يحمل ما غنَّته أوتاري
حياةٌ ليس فيها ثورةٌ موتٌ لطالبها
وهل لحياتنا فكرٌ يكونُ لغير غالبها
وبدءُ الفِكْرِ بدءُ تأهُّبِ الأحرار للخَطَر
وشعبٌ واثقُ الخطوات سيفٌ في يدِ القدر
إذا الآثارُ جوهرنا أبَتْهُ عابَها النَّقْصُ
وإنْ لم تأخذِ الأنغامَ عنَّا أضحكَ الرقصُ

* * *

صرخة « المعتمد »[1] في السِّجن

تكادُ صرخةُ قلبي عند حَنْجَرتي تشقُ من كَتْمها قلبي وتنطلقُ
كأنَّها جمرةٌ فيه بلا شَرَرٍ قلبي بها دون كلِّ الناسِ يحترقُ
كذاك تفعلُ بالحرِّ الحياةُ إذا أرادَ شيئاً وحالتْ دونَه الطُرقُ
أليسَ عاراً على الأحرار يسجنُهُمْ مع العبيد دعيٌّ جيشُهُ الحَمَقُ
لعلَّ فولاذَ سيفي صِيْغَ ثانيةً غلاًّ لكفي الَّتي لم يَثْنِها فَرَقُ
لا أشمتَ اللهُ بالأقدارِ حاسدَنا فليسَ شيءٌ من الأقْدار يُسْتَبَقُ

* * *

---

(١) المعتمد بن عبَّاد : ملك إشبيلية حالف الفونس السادس فأسره يوسف بن تاشفين وألقاه في السجن فمات فيه .
وقد نشرت قصائده مترجمة إلى اللغة الإنكليزية في سلسلة (WISDOM OF the east) (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

النخلة الأولى[1]

(١)

(يلاحظ أن المقطع الأول من القصيدة ترجمة لقصيدة عبد الرحمن الأول التي وردت في نفح الطيب ٣/ ٥٤ وقد غُرسَت النَّخلةُ في مدينة الزَّهراء ، والقصيدة كما ذكرها المقريّ) .

تبدَّت لنا وسط الرُّصافَةِ نخلةٌ ... تناءتْ بأرضِ الغَرْبِ عن بلدِ النَّخل

فقلتُ شبيهي في التغرُّب والنَّوى ... وطولِ اكتئابي عن بنيَّ وعن أهلي

نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ ... فمثلكِ في الإقصاءِ والمُنْتأى مثلي

سقتْكِ غوادي المُزْنِ في المُنْتأى الذي ... يسُحُّ ويستمري السِّماكينِ بالوَبْلِ

---

(١) وقد ترجمها الشاعر كما في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :

أنت نورُ عيني
أنت فرحُ قلبي
أنا بعيدٌ عن وطني
وأنت عندي شجرةٌ من سيناء
ترعْرَعَتْ في أرض الغرب
ومع ذلك فأنت حوريةٌ من الصحراء العربية
أنا نَفَذَ صبري في غربتي
وأنت نَفَذَ صبرُك في غربتك
أيمكن أن تؤتي ثمارَك في الأرض الغربيَّة
عسى أن يكونَ ندى الصَّباحِ هو الذي يَسْقيك .

(وقد استوحى إقبال المقطع الثاني من القصيدة ذاتها لذلك آثرنا نظم المقطع الثاني على نهج أبيات عبد الرحمن) .

وأعْجَبُ ما في الكونِ غربةُ مثلنا ... وفي الشَّام من أمثالنا عَدَدُ الرَّملِ
وما زلتُ في التَّطوافِ ألقى على المدى ... زماناً غريب الوجه مختلف الشَّكل
وليس لهذا البحر من ساحلٍ يُرى ... مضيتُ به عريانَ مُمْتَشِقاً نصلي
وما منْ حياةٍ للَّذي أنِفَ الرَّدى ... وهل يقدح الزِّند الشرارَ من الوحل
إذا شامَ طرفي البرقَ زادَ تألُّقاً ... وحنَّ بذكرِ الشَّامِ للأعين النُّجْلِ
وما ضرَّنا مُلْكٌ تركناه خلفنا ... فكلُّ بلادِ الله ملكُ ذوي العَدْلِ
سنبني كما كُنَّا بنينا لغيرِنا ... وحاشا لأهلِ الجُوْدِ توصمُ بالبُخل
إذا نَضَبَتْ أجسادُنا منْ دمائِنا ... فمنزلُنا ريَّانُ من غَدَقِ البَذْلِ
ستذكُرُنا الدُّنيا وتندُبنا الورى ... وتطْلُب من آثارنا كعبةَ الفضلِ
يقال هنا صلَّتْ وضجَّت قلوبُهم ... هنا انتبذَتْ أرواحَها رسلُ النَّخْلِ

* * *

إسبانيا

(كُتبت في إسبانيا ساعة مغادرتها)

صوتُ المنائر في نسيمِك يَرْقُدُ وصداه في أرواحنا يتردَّدُ
يا توءَمَ الحرم الشريف تطوَّفَتْ بكِ رُكَّعٌ من عاكفينَ وسُجَّدُ
سيماكِ من أثرِ السُّجود على الثَّرى طربٌ يفوحُ ونضْرةٌ تتجدَّد

* * *

تحكي النجومُ أسنةً لرماحهم بإزائها ليلٌ يقومُ ويَقْعُدُ
ملؤوا وهادَك بالخيامِ ولم تزلْ أوتادُها بنسيمهم تتأوَّدُ
إنْ تسألِ الحسناءُ عن حُنَّائهم فتَخيبُ يُنْصِفُها دمي المتورِّدُ
يا طالما سُفِكتْ هناكَ دماؤُنا ظُلماً ونحنُ المشفقونَ العُوَّدُ

* * *

ما كان صقرُ قريشٍ غيرَ موحِّدٍ عجباً أما في المسلمين موحِّدُ
خَمَدَتْ حقيقتُنا وزالَ لهيبنَا وبريقُ قرطبةَ الشَّريدُ مخلَّدُ
ووقفتُ لا نومي حَمَدْتُ ولا السُّرى أتكبَّد الجرح الذي أتكبَّدُ
عانيتُ مشهدهم وقُلْتُ وقيل لي سِيَّان قولٌ في العزاء ومَشْهدُ

* * *

ستُهتك الأستارُ عن سينائنا وتُباحُ أسرارٌ لنا وتُبدَّدُ
ويكونُ أول من يقومُ بهتكها للناس أولَ مصلحٍ يتحمَّدُ

* * *

دعاء طارق

نزل طارق بن زياد ـ القائد الشاب ـ بجيشه العربي المسلم على أرض إسبانيا ، مدخل أوربة ، وأمر بإحراق السفن التي حملت الجيش الإسلامي لتتقطع بالمسلمين أسباب الرُّجوع ، ويستطيع أن يقول لإخوانه : « **أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر** »[1] ، فيثير ذلك فيهم القوة الكامنة ، والاعتماد على الله ، ثم على سواعدهم وسيوفهم .

صفَّ طارق جيشه أمام العدو ، واستعرضه فرأى أنه لا يكافىء الجيش الإسباني في العُدَّة والعَدَد ، ووصول الميرة والمدد ، فإن العدو في مركزه ومملكته ، والجيش الإسلامي غريبٌ منقطع عن مركزه وبلاده ، لا يطمع في ميرةٍ ولا مددٍ ، إلا ما ينتزعه من أيدي عدوه انتزاعاً ، ويتغلَّب عليه ، ويعرف أنه لو حدث به حدث ، ودارت عليه دائرة لأصبح خبراً من الأخبار ، وكان طعمةَ السباع والنسور .

كل ذلك أثار في طارق التفكير والاهتمام ، وفكَّر فلم ير حيلة إلا أن يضم إلى هذا الجيش قوةً لا تُهزم ، وإرادةً لا تغلب ، إنها القوة الإلهية ، وإنها الإرادة الربَّانية ، وقد وثق بها طارق ، ووثق أنها معه ، أليس هذا جند الله ؟ أما جاء ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وقد قال الله : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٣] .

---

(١) قطعة من خُطْبة طارق بن زياد .

هنالك وقف القائد المؤمن يناجي ربه ، ويطلب نصره ، وكان في ذلك مقلِّداً للرسول الأعظم ﷺ ـ قائد الكتيبة المؤمنة الأولى ـ إذ عبأ جيشه يوم بدر ، وصفَّه أمام العدو ، ثم اعتزل في العريش ، ونصب جبهته يبكي ، ويقول : « **اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد** » ، فتأسَّى طارق برسوله وسيده ، ودعا بهذا الدعاء العجيب الذي لا يدعو به قادة الجيوش ولا يخطر منهم على بال ، وقد سبكه محمد إقبال في قالب شعره ، فزاد في تأثيره وسحره .

قال طارق : اللهم ! إن هؤلاء الفتيان الذين خرجوا جهاداً في سبيلك ، وابتغاء مرضاتك ، رجالٌ غامضون مجهولون لا يعرف سرهم وحقيقتهم غيرك ، لقد منحتهم طموحاً وعلوَّ همة ، لا يرضون معه إلا أن يكونوا سادة العالم ، يحكمون الدنيا كلها بحكمك وينفذون فيها أمرك ، لا يعلوهم غيرك ، أبطال مغاوير ، تنفلق بهيبتهم البحار ، وتنضوي لصولتهم الجبال ، لقد ذاقوا لذة الإيمان والحب ، حتى استغنوا بها عن العالم والمادة ، وهانت عليهم الدنيا وزخارفها وشهواتها ، وذلك شأن الحب إذا خالطت بشاشته القلوب ، ما جاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنين إلى الشهادة ، التي هي وطر المؤمن العزيز ، وهمه الوحيد ، لا يفكرون في الغنائم ولا في فتح البلاد ، ولا في بسط السيطرة والنفوذ على العباد .

إنَّ العالم قد وقف على شفا حفرة من النار ، لا يمنعه من التردي في الهاوية إلا أن يبذل العرب دماءهم ونفوسهم بسخاء وشجاعة ، إن العالم بحاجة إلى دمٍ عربيٍّ زكيٍّ ، فلا يروي غليله ، ولا يشفي عليله إلا الدم العربي الطاهر ، ها إن الأزهار والورود في الغابة في انتظار أن تسقى بهذا الدم القاني ، فترفل في حلته ، وقد قدمنا لنزرع نفوسنا ، ونريق دماءنا في هذه الأرض النائية ، لتخصب الإنسانية بعد جدب طويل ، ويحل الربيع بعد انتظارٍ شاقٍّ طال أمده .

لقد أكرمت يا رب ! رعاة الإبل وسكان الوبر ـ العرب ـ بنعم فريدة لم يشركهم فيها أحد ، لقد أفردتهم بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وشعار جديد ،

هو : أذان الصبح ، فقد أفلست الأمم من العلم الصحيح ، والإيمان القوي ، والذوق الرفيع ، والدعوة الصارخة السافرة إلى التوحيد ، على حين غفلةٍ من الناس ، أما العرب فقد فاجؤوا العالم بصحة علمهم ، وجدة إيمانهم ، وسلامة ذوقهم ، ودويٍّ أذانهم في السكون المخيم على العالم ، والظلام الحالك ، لقد كانت الحياة فقدت لوعتها وحرارتها من قرونٍ طويلة ، وقد وجدتها من جديد في قلوبهم الفائضة بالإيمان والحنان ، إنهم لا ينظرون إلى الموت كنهاية لهذه الحياة ، وكتلف للنفس الإنسانية ، إنهم يرون فيه فتحاً جديداً ، وعيشاً جديداً ، أعد يا رب ! إلى هذه الأمة المؤمنة الحمية الإيمانية والغضبة المؤمنة ، التي تجلَّت في دعاء نوح ، فقال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦]. حتى تصبح صاعقة على عالم الكفر والفساد ، وأخلق فيها المطامح البعيدة ، والعزائم القوية الشديدة ، واقذف في قلوب الناس رعبتها ، وهيبتها حتى تعمل نظراتها عمل السيوف[١] .

وقد استجاب الله دعاء طارق ـ القائد المؤمن المخلص ـ وانتصر الجيش الإسلامي على عدوه ، الذي كان يفوقه مراراً في العَدد والعُدد ، وأصبحت إسبانيا النصرانية الأوروبية الأندلس الإسلامي الغربي ، وقامت دولة المسلمين في ربوعها وازدهرت قروناً ولم تضعف ولم تزل ، إلا بفقدهم الروح التي تضلع بها طارق وأصحابه ، وبنسيانهم الرسالة التي جاءت بهم من جزيرة العرب ، وبفقرهم في الإيمان الذي امتاز به طارق بين قادة الجيوش ، وفاتحي البلاد ، وبانغماسهم في الشهوات والحروب الداخلية ، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٢][٢] .

* * *

---

(١) من « بال جبريل » (جناح جبريل) ديوانه .

(٢) من « روائع إقبال » للعلاّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي .

دعاء « طارق »

« نُظمت في ساحة المعركة في الأندلس »

هـذي الكُمَـاة عبـادُك الأخيـارُ ... حملـوا عَنَـاءَ العـالميـن وسـاروا
أصحـابُ سـرِّكَ والسِّيـادةُ طبعهـم ... والنُّـور فـي نظـراتهـم والنَّـارُ
فعلتْ كموسى في البحار عِصِيُّهم ... وتـراجعـت لخطـاهـمُ الأنهـارُ
البَحْـرُ حَبَّـة خـردل فـي كفِّهـم ... والعِشْـقُ فـي أرواحهـم إعصـارُ
عـزفـوا عـن الـدَّاريـن إلا أنَّهـم ... علـمٌ علـى الـدَّاريـن لا ينهـارُ
نيـلُ الشَّهـادة للمـوحِّـد مطمـحٌ ... وإذا تقحَّـمَ فـالجـراحُ غبـارُ
لا سَبْـيَ غـانيـةٍ وسَلْـب خـزانـةٍ ... ومطـامـحُ الهمـمِ الكبـارِ كبـارُ
كلُّ العباد على اختلافِ عروقهم ... تـرجـو رجـاءَ شقـائـقِ النُّعمـانِ
تـرجـو مـن العـربـيِّ لـونَ دمـائـه ... وتضـجُّ ليـلَ نهـارَ فـي البُستـانِ
ربَّـاه أنـت بَعَثْـتَ مـن صحـرائهـم ... سكَّـانهـا وجعلتهـم أفـذاذا
وملأتَ صَدْرَ الصُّبح من آهاتهم ... وجَعَلْـت أعـرابيَّهـم أستـاذا
طـوتِ الحيـاةُ الـدَّهـر تنشـد طُلْبـةً ... عـزَّتْ وطلبتُهـا مـذاقُ النَّـار
وبـروحهـم عثـرتْ عليهـا بعـدمـا ... كلَّـت مـن التِّـرحـال والتِّسيـار
المـوتُ ليـس نهـايـةً فـي عينهـم ... هـو للبصيـرة بَـابُهـا المفتـوحُ
ربَّـاهُ ! فـابعـث مسلميـن أعـزَّةً ... يتـوسلـون كمـا تـوسـلَ نـوحُ
لتغيُّـرات العَصْـر مـن ثـوراتـه ... وهـمٌ وأنـت الفـرد لا تتغيَّـرُ
ربـاهُ ! أنـت هـو الحقيقـةُ كلُّهـا ... والنَّـاس منهـا مـوسـرٌ أو مُعْسـرُ
الـدَّهـر ملـك يـديـك ليـس لأهلـه ... إلا ظنـونُ الـواهـم المتقـوِّلُ
يتنـازعـون علـى تفهُّـم عـالـمٍ ... سكـرانَ مـن مـاضٍ ومـن مستقبـلِ

* * *

« لينين » أمام الله[1]

يـــا مـــن نـــرى فـــي النَّفـــس والآفـــاقِ مـــن آيـــاتـــهِ
الحـــقُّ : أنَّـــك خـــالـــدُ حـــيٌّ يقـــوم بـــذاتِـــهِ
مـــا كـــان يمكـــنُ فـــي وجـــودك أنْ يكـــونَ علـــى يقيـــنْ
والعقـــلُ يخـــرجُ مـــرغمـــاً عـــن رأيـــه فـــي كـــلِّ حيـــنْ
مـــا كـــان يـــدركُ عقلُنـــا فـــي طيـــشِ نظـــرتـــه السَّـــريعـــهْ
مـــا كنـــتَ تُـــرْسلُـــه مـــن الأنغـــام فـــي خَلَـــدِ الطبيعـــهْ
سِيَّـــان رصَّـــادُ النُّجـــوم ومـــن تـــوغـــل فـــي النبـــات
وقفـــوا علـــى مِـــرْصـــادهـــم والكـــلُّ ينقصـــه الثبـــات
اليـــومَ أعلـــنُ بعـــدمـــا شـــاهـــدت عـــالمـــك الأخيـــرْ
وأنـــا الـــذي كـــابـــدتُ أفهمُـــه وعـــانيـــت الكثيـــرْ
أنِّـــي ـ وتعلـــم ـ لـــم أكـــنْ وحـــدي هنـــالـــكَ فـــي غُـــرور
كـــانـــت أســـاطيـــر الكنيســـةِ حـــول عَتَمَتِنـــا تـــدور

---

(١) علَّق الأستاذُ الملُّوحي على القصيدة بقوله : يهمُّ القارىء أن أذكر تعليقاً على هذه القصيدة ورد في كتاب « مدخل إلى فكر إقبال » للكاتب الفرنسي (لوك كلومبتر) (طبع بيرسيجرس باريس عام ١٩٥٥م) وفيه ص٧٣ :
هذه القصيدة العجيبة كتبها إقبال آخر سني حياته ، ويخطىء من يرى فيها تغيُّراً في وجهة أفكاره والصحيح أنها تعميق لهذا التفكير . . فليست هي المرة الأولى التي يفضح فيها إقبال مساوىء الرأسمالية .
ويجب أن نقول إنَّ هذه القصيدة تدل على يقظة وجدان أكثر وضوحاً وأشد وعياً للواقع الاجتماعي ونجد بها هذا الغضب الرَّاعد الذي كلُّه حب وصفاء .
انظر مجلة فكروفن عدد ٣٢ ص٧٩ وما بعدها .

كنَّا هناك مكبَّلين بكلِّ أغلالِ الليالي
أيامَ أنتَ تصوِّر الأزمانَ فيه على التَّوالي
قلبي يمزِّقه سؤالٌ فيه فائذن بالسؤال
تركَتْه خوفاً من عواقِبه أباطرةُ الجِدال
هذا السؤال وكان طول العُمْرِ يرميني شريدا
ويثيرُني تحت السَّماء أسىً ويتركني وحيدا
هذا الذي ألقى بأيامي حُطاماً في الوِهادِ
هذا السؤالُ وكان مغروساً كشوكٍ في فؤادي
هذا السؤال عن الأنام ولن أجور على الأنام
وأنا تضايقني مراقبة الطَّريقة في الكلام
فالمرءُ لما تعصفُ الأفكارُ في أرجاء روحه
لا يستطيع تخيُّر الكلمات تخرج من جُروحه
[منْ كان آدمُ حينَ كان الطين صلصالاً عليه
منْ كان سيِّده سؤالٌ لا أوجهه إليه]
إيَّاك يعبد ـ لا أظنُّ وأنتَ علاَّمُ الغيوب ـ
عاصَرْتُه أيامَ كان الدِّين أفيونَ الشُّعوب
عاصَرْتَه مترنِّحاً بهياكل الصَّنم القبيحْ
في درب أوربَّة التي ائتمرتْ على الشَّرق الجريحْ
في درب أوربة التي تبدو مناراً للحياة
والحقُّ أنَّ النَّبع في ظلماتها نبعُ الممات
تاهت بأبنيةِ المصارفِ فوق أبنيةِ الكنائس
وأتتْ لهيكلِها الجديدِ بكلِّ أنواعِ النفائس
قالوا تجارات تدارُ وكلُّ ما فيها قمار
ومصادفاتٌ تجعل البُلدان في جيب الكِبار
أيُّ السياسةِ والحكومةِ والكنيسةِ والسَّماء

رفعوا مساواةً تقال وأشربوا حُبَّ الدماء

العُزْيُ والفقر المبادلُ والبَطالة والفَساد

آياتُ أوربَّة التي انتشرت بأنحاءِ البلاد

أسفاً لشعبٍ كاملٍ ردَّ المحبَّة للسَّماء

حُصِرَتْ روائعُه بما أوحتْ إليه الكَهْرباء

لم يَبْقَ بعد حكومةِ الآلات معنىً للقلوب

كان الحنان ملاذُنا فَمَحَتْه من بين الشُّعوب

وبرُغم هذا كلِّه تبدو الدَّلائِلُ أنَّهم

سيُبدِّدُون وَيَقْرَعون على الهزيمةِ سِنَّهم

حاناتُهم وقعت بما نصبوه من تلكَ الشِّباك

فإذا شيوخُ السُّكر مما يشربون بلا حَرَاك

الحمرة الملقاةُ فوق وجوههم عِنْدَ المساء

آثارُ خمرٍ زائفٍ وخضابِ زورٍ لا دِماء

ربَّاه ! أنت القادرُ الحقُّ الرَّحيم العادِل

من ذاق من مرِّ المعيشة ما يذوقُ العامِلُ

الرأسماليون مركبُهم يُعَرْبِدُ في بحارك

فمتى تُغَرِّقُه وتأخذُ من مظالمهم بثارك

* * *

الملائكة تغني

« مقطوعة تابعة لقصيدة لينين »

الفِكْـرُ حـرٌّ لا يُـرَدُّ جِمـاحُـهُ والحـبُّ لا مـأوى لـه يُـؤويـهِ
رباه ! لـوحتُـك التـي لـم تكتمـلْ جـارت على السرِّ الَّـذي تطـويـه
كُهـان خلقـك فـي صفـوف طُغـاتهـم يَقِفُـون للبسطـاء بـالمـرصـادِ
محـنٌ صبـاحَ مسـاءَ لا معنـى لهـا إلا لجـوءُ النَّـاس لـلإلحـادِ
فقـراؤهـم مـن بـؤسهـم فـي سكـرةٍ والأغنيـاء مـن الـرَّفـاه سُكـارى
عبـدٌ يلـمُّ مـن الشَّـوارع خبـزَه عـوَزاً ، وعبـدٌ يُطْعـمُ الأقمـارا
هـل تَسْلَـمُ الحكمـاءُ والفقهـاءُ من طمـعٍ تـأجَّـج فـي النُّفـوس وَقِيْـدُهْ
أمْ تَسْلـمُ الآراءُ مـن لعنـاتـه هـذي عطـايـاه ، وتِلْـكَ عبيـدُهُ
يـرعَـونَ كـلَّ ضغينـةٍ لبقـائهـم والحـبُّ مـن ألـم الشَّقـاء يصيـحُ
سبحـانَـك اللهـمَّ فـالحـبُّ الـذي يـأسـو جـراحَ البـائسيـن جـريـحُ
ذاتُ الحيـاةِ الحـبُّ جـوهـرُ سرِّهـا والحـبُّ جـوهـرُه حيـاةُ الـذَّاتِ
أسفـاً لهـذا السيـف يخبـطُ سـرَّه فـي الغِمْـدِ بيـن الـذُّلِّ والآهـاتِ

* * *

« أوامر الله للملائكة »

قـومـوا إلـى كـونـي الغـريـقِ وأطلقـوا فقـراءَه فيـه علـى الأمـراء
أيبـدِّلـون مسـاجـدي بقصـورهـم جـوراً على خلقي وهـم أُجَـرائي

قوموا إليهم وانفخوا من روحنا فيهم ولا تأسَوا على أسراره
قولوا لحائرِهم تبدَّل أمرُكم فاستبدلوا بَرْدَ اليقين بنارِه
قوموا إلى ضعفائهم وهَبُوهُمُ ما يجعلُ العُصفورَ يَصْرَعُ بازا
وامحوا منَ الماضي جميعَ ذيوله لا تتركوا للجامِدين مفازا
وخذوا من العَدْل الأخير لأرضهم سيفاً يقيمُ بحدِّه الإصلاحا
وتقلَّبوا بالنَّار في الحقل الذي تجدونه لا يشبعُ الفلَّاحا
لم هذه الحُجُبُ التي تلهو بهمْ وتحولُ بينَ الخلقِ والخلَّاقِ
لا تتركوا في الأرض ستراً مسبلاً أرخاه كاهنُهم على أرزاقي
ومن الكنائس أخرجوا أربابها الغارقينَ بلُجَّة الأوهام
لله قد شُرع السُّجود وما عدا هذا ، مؤامرةٌ مع الأصنامِ
جوسوا الكنائسَ والمساجدَ لا أرى لكنيسةٍ ولمسجدٍ مصباحا
أنا غير راضٍ عن رخامٍ أبيضٍ تلقى به سودُ القلوبِ مراحا
وابنوا من الطِّين المعابدَ علَّ أن يَجِدَ السكينة عابدي المسكينُ
يتنافسون بِنَقْشِها وبرَقْشِهَا والطِّينُ لا يهديه إلا الطِّينُ

* * *

فتَّشْتُ في هذي الحضارةِ كلِّها لم ألقَ فيها غيرَ نافخِ كير
فتداركوا الشَّرقَ الذي يرنو لها وليعْلُ شاعرُه بصوتِ نكيرِ
في الغربِ فلسفةٌ وفي تصديقها تهديمُ صَرْحِ الذَّات في الإسلام
وصميمُ ذاتك في حوار إلههـا وحوار موسى ليس محضَ كلام
آثارُ دروشةِ القلندر لم تعُدْ سراً ودروشة القلندر تاجُهُ
في كبرياء الفقر صونُ ذواتنا والمرءُ محكومٌ بما يحتاجُه

* * *

في أرض فلسطين

تحرَّكت السياراتُ التي كانت تقل ضيوف المؤتمر الإسلامي المنعقد في قدس عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) ، ودخلت في الفضاء الواسع ، وطلعت شمس ، وأرسلت خيوطها الذهبية ، كأنها جداول نور نبعت من عين الشمس ، لم يزل الشروق مصدر سرورٍ وإلهامٍ للشعراء ، يجدون فيه الحياة للقلب النشاط للفكر ، والتقى جمال المكان بجمال الزمان ، فأثار ذلك الشاعرية في شاعر العظيم والفيلسوف الكبير الدكتور محمد إقبال ، الذي جاء من أوربة مثل الهند الإسلامية في المؤتمر الإسلامي ، وبدأ يتمتَّع بهذا المنظر الخلاب ، يسخو بنظراته ـ التي يحتفظ بها الشعراء ـ في سبيل القلب ، فكلُّ نظرة تضيع ي جمال الطبيعة ترجعُ إلى القلب بالربح العظيم ، لأنها تشحن « بطاريته » لنور الجديد ، والقوة الجديدة .

هذا وقد تهيأ الجو ، وتوفرت الأسباب لإمتاع الشاعر العظيم وإثارة ريحته ، فقد غطت الجو سحائب ذات الألوان ، واكتست جبال فلسطين طيلسانٍ جميلٍ زاهي اللون ، وهبَّ النَّسيم عليلاً بليلاً ، وهفت أوراق النَّخيل صقولةً مغسولةً بأمطار الليل ، وأصبحت الرِّمال في نعومتها وصفائها حريراً .

ورأى الشاعر العظيم آثار نيرانٍ انطفأت قريباً ، وأثافيَّ[1] منثورةً هنا وهناك ، وبقايا من خيام وأخبية ، ضربت في هذه الصحراء بالأمس القريب ، وتخبر بالقوافل التي أقامت ثم ظعنت .

وطاب المكان والزَّمان للشاعر ، وسمع كأن منادياً من السماء يحثه على أن

---

١) الأثافي : الحجارة التي توضع عليها القدور .

يلقي عصا التسيار ، ويؤثره بإقامته[1] .

حرك هذا المنظر البديع في هذا المكان الرفيع ، الذي أكرمه الله بجمال الطبيعة والرسالات السماوية ، عواطف الشاعر وهاجت قريحته ، وتحرك الحبُّ الدفين ، ومن شأن هذه المناظر أن تثير الدفائن ، وتظهر الكوامن ، فيتذكر الإنسان أحب شيء إليه ، فيحن إليه ، ويتمثله ، ويتغنَّى به ، وقد حلَّ « الإسلام » ، وحلت الأمة الإسلامية في قلبه محلَّ الحبيب الأثير ، وسيطر حبه على مشاعره ، فما كان من الشاعر المؤمن إلا أنه تذكر حبيبه وتغنَّى بجماله ومحاسنه ، وركز آماله وأحلامه عليه ، وقال بلسان الشاعر العربي البليغ :

ولما نزلنا منزلاً طلَّه النَّدى أنيقاً ، وبستاناً من النور حاليا
أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنه منىً ، فتمنينا ، فكنت الأمانيا

وثارت فيه العواطف والخواطر ، ورأى أنَّ ركب الحياة بطيء لا يسايره في أفكاره الجديدة ، وخواطره الوليدة ، ورأى أن العالم عتيق شائب ، وفكره « الإسلامي » جديد فتيٌّ ، ورأى أن العالم قد تجددت فيه أصنامٌ وأوثان ، وبنيت هياكل جديدة يعبد فيها صنم القومية ، والوطنية ، واللون ، والجنس ، والنفس ، والشهوات .

وقد تسربت هذه الوثنية إلى العالم الإسلامي والعربي ، أفليس العالم في حاجة إلى ثورةٍ إبراهيميةٍ جديدةٍ ، إلى كاسر أصنامٍ يدخل في هذا الهيكل فيجعل هذه الأصنام جذاذاً ؟

وسرح طرفه في العالم الإسلامي ، فوجد إفلاساً محزناً في العقل والعاطفة ، رأى العربي قد ضعف في إيمانه وعقيدته ، وفي لوعته وعاطفته ، ورأى العالم العجمي قد فقد العمق والسعة في التفكير ، ورأى أنَّ النظام المادي ، والحكم الجائر المستبد ينتظر ثائراً جباراً جديداً ، يغضب للحق ،

---

(١) الوصف للمكان والمنظر لإقبال ، نقلناه إلى العربية في لفظنا .

ويثور كالليث ، ويمثل الحسين بن علي في حميته وفروسيته .

ورجا العالم الإسلامي أن يطلع هذا الثائر من ناحية بلد عربي ، ويفاجيء العالم بصراحته وشجاعته ، وتطلع العالم إلى الحجاز ـ معقل الإسلام وعرين الأسود ـ فما كان منه إسعاف وإنجاز ، ولم تتجدد معركة كربلاء على ضفاف دجلة والفرات ، مع شدة حاجة الإنسانية إلى ذلك ، ورغم شدة حنين العالم الإسلامي إلى بطله الجديد .

وهناك شعر محمد إقبال أنَّ السبب في هذا التحول العظيم ، هو ضعف العالم الإسلامي في العاطفة والحب ، الذي هو مصدر الثورات والبطولات ، فانطلق يشيد بفضل الحب وتأثيره ، ويقول :

« لا بدَّ أن يعيش العقل والعلم في حضانة الحب ، وإشرافه وتوجيهه ، ولا بد أن تسند الدين وتغذيه عاطفةٌ قوية ، وحب منبعه القلب المؤمن الحنون ، فإذا تجرَّد الدين عن العاطفة والحبِّ أصبح مجموعةً من طقوس ، وأوضاع ، وأحكام لا حياة فيها ولا روح ، ولا حماسة فيها ولا قوة ، هذا الحب الذي صنع المعجزات ، هو الذي ظهر في صدق الخليل وصبر الحسين ، وهو الذي تجلى في معركة بدر وحنين » .

وهنا يُقبل الشاعر الكبير على « المسلم » الذي دائماً يستهين بقيمته ، ويجهل مكانته وشخصيته ، فيقول : **« إنك غاية وجود هذا الكون ، ولأجلك خلق الله هذا العالم ، وأبرزه إلى الوجود ، وأنت البغيةُ المنشودة ، التي هام في سبيلها الهائمون ، وحار في الوصول إليها الباحثون »** .

ثم يستعرض العالم الإسلامي ـ وقد عرف شرقه وغربه وعربيه وعجميه ـ فيحزنه قصر النظر ، وقلَّة الذوق في رجال العلم والثقافة ، وسقوط الهمَّة ، وقلة البضاعة[1] في رجال الدين ، ويرى أن المراكز العلمية والدينية ـ بمعناها

---

(١) المراد منها البضاعة العلمية والدينية وما همَّ بصدره .

الواسع ـ محرومةٌ من عمق الفكر ، وسلامة الذوق ، والنشاط العقلي ، والطموح الذي كان سمة هذه المراكز التي تتزعم العالم الإسلامي ، وتقود الأجيال البشرية ، ويقول : « **إني هائم في شعري وراء الشعلة التي ملأت العالم أمس نوراً وحرارة ، وقد قضيت حياتي في البحث عن تلك الأمجاد التي مضت ، وأولئك الأبطال الذين رحلوا وغابوا في غياهب الماضي ، إن شعري يوقظ العقول ، ويهز النفوس ، ويربي الآمال في الصدر ، ولا عجب إذا كان شعري يملأ القلوب حماسة وإيماناً ، وكان وقعه في النفس كبيراً وعميقاً ، فقد سالت في شعري دموعي ودمائي ، وفاضت فيه مهجتي ودعائي ألا يخفف الله من هذا الجوى ، بل أسأل الله المزيد والجديد** » .

ثم يقبل في شعره إلى الله ، ويذكر كيف أحاطت تجلياته بالوجود ، كيف صغر هذا الكون الواسع ، وكأنَّه ذرةٌ حقيرة أو قطرةٌ صغيرة في جنب هذه السعة التي لا نهاية لها ، وكيف أشرق نوره على ذرةٍ فكانت شمساً بازغة ، وكيف تجلى بالجلال فكان في الأرض ملوكٌ كبار ساقوا الأمم وحكموا العالم ، وكيف تجلى بالجمال فكان زهاد وعباد ، زهدوا في متاع الدنيا ورفقوا بخلق الله ويقول : « **إن الحنين إليك هو حـادي الروح ورائد القلب ، وهو الذي يضفي على صلاتي ، وعبادتي حياةً روحانية ، فإذا تجردت صلاتي من هذا الحنين لم أر أنها تقربني إليك ، لقد وجد عندك العقل والعاطفة ما يعوزهما وما يحتاجان إليه ، فأصبح العقل ـ بعد توفيقك ـ يغيب أحياناً ، ويهيم في البحث بعد ما كان قد ركد ، واقتصر على الدراسة والتفكير ، ووثق بنفسه ، وعرفت العاطفة الحضور والاضطراب** » ، ويناجي ربه ويقول : « **إن الشمس لم تستطع أن تنير هذا العالم المظلم ، وقد آن أن تشرق الأرض بنور ربها ، ويعيش العالم من جديد** » .

ويعترف أمام الله بأنه لم يكن سعيداً في دراساته العلمية الطويلة الواسعة ، وأنه قد اتضح له أخيراً أن المعلومات لا تعطي الثمرات ، وليس كلُّ من درس

علم النخيل تمتع بالرطب ، ويذكر الصراع بين العقل والعاطفة ، والمصلحة والإيمان ، ذلك الصراع الذي لم يزل ولا يزال قائماً حامياً ، ويذكر معركةً قامت في فجر التاريخ الإسلامي بين المادة والإيمان ، حمل لواء المادة فيها أبو لهب وأضرابه ، ورفع راية الإيمان فيها محمد ﷺ وأصحابه ، ولكلٍّ حلفاء ، ولكلٍّ معسكر[١] .

فلينظر العالم العربي إلى أيِّ معسكر ينضم ؟ إلى معسكر المادة والمعدة ، أم إلى معسكر الإيمان والإخلاص ، وإلى أيِّ رايةٍ ينضوي ؟ إلى الراية الجاهلية التي قاتل تحتها أبو جهل وأبو لهب ، أم إلى الراية المحمَّدية التي التفَّ حولها أبو بكر وعمر[٢] .

في أرض « فلسطين »

كُتبت أكثرُ هذه الأبياتِ في فلسطين حين زيارة إقبال لها عام ١٩٣١ للاشتراكِ في المؤتمر العالمي الإسلاميِّ .

من الفقرِ أن تأتي وفاضك فارغٌ ... وقد طُفْتَ في تلكَ الرياضِ جميعِها[٣]

« سعدي »

نزلت بريّة الوادي بذي سلمٍ ... والشَّمس ترتعُ بين البَان والعَلَمِ

---

(١) من « بال جبريل » (جناح جبريل) قصيدة « ذوق وشوق » .

(٢) من « روائع إقبال » للعلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي .

(٣) البيت في الأصل :

« ما أفقر من يطوف في كل هذه البساتين ذاهباً لزيارة الأصدقاء ويداه فارغتان » .

وقد ترجمه الفراتي :

واحسرتا قد عدت فارغ اليد ... من تحف الدنيا لهذه البلد

انظر البستان (١ : ١٦) .

وفاحَ ريحُ صباحٍ من مواجدها ... يشفي العليل من الأوصابِ والسَّقَم
بنظرةٍ لجمال الوادي واحدةٍ ... تقحَّم القلبُ منها ألفَ مُقتحمِ
وللمساء سحابٌ من غلائلها ... حمراءُ زرقاءُ من وردٍ ومن عَنَم
ألْقَت براقعَ مجلاها على إضمٍ ... وأومضَ البرق في الظَّلماء من إضمِ
نقيَّةُ الخدِّ سعفُ النخل مشرقةٌ ... مرفوعةُ الراي تحكي رفعةَ القِمَمِ
والرَّمل كالخزفي في أرجاء كاظمةٍ ... يموجُ فيها بما في الخزِّ من عَمَمِ
هنا بقيَّةُ أطلالٍ ، هنا لهبٌ ... يذوي ، هنا بضعُ أشلاءٍ من الخِيَم
كمْ خَلْفَ ليلى ركابٌ منْ هنا عبرتْ ... وعضَّ من لَغَبٍ نضوٌ على لُجُم
هُمُ أقاموا سكارى هاهنا زمناً ... فإنْ رضيتَ بسكر هاهنا أقمِ
يرى هنا من نأتْ عنه أحبَّتُهُ ... سَلْوَةُ ، ويهيج الوَجْدُ بالشَّبم

(٢)

خمرُ الحياةِ كمِثْل السُّمِّ عاقبةً ... عندي، ومن ذا الذي يُصْغي إلى كلمي
صياحُ وجهٍ جديدٌ لا يقيمُ له ... وزناً زمانٌ تعاطى سكرة القِدم
أما لمعتركِ الأيَّامِ من طَمَعٍ ... بغزنويٍّ جديدٍ غير منهزمِ
عباد (سومناث) تخشى أن يحرِّمَها ... أمام (سومناث) مبعوثٌ من الحَرَم
لا في لهيبِ تراثِ العُرْبِ من رَصَدٍ ... يُرَجَّى ، ولا في غِنَاءِ الفرس من نَغَمِ
هل في الحجاز حسينٌ من بني مُضَرٍ ... وهل هنالك محمودٌ من العَجَم
ألا يهيم على وجه الفُرات لهم ... قلبٌ ، ولم يلقَه خالٍ ولم يَهِمِ
أحُسْنُ دِجْلة لم يفتنْ سرائرهم ... وحسنُ دجلةَ في محرابهم صنمي
أما لهم من بقايا الحبِّ باقيةٌ ... وهم سلالةُ أهل الحبِّ والتَّيمِ
أستغفرُ الله هل للدِّين من قِيَمٍ ... بغير حبٍّ وهل للشعب منْ قِيَمِ
بالحبِّ قدَّم إبراهيم واحده ... وابنُ الحسينِ على كفِّ الحسين رُمي
فسل حُنيناً وبدراً عن حروبهما ... كم ضرَّج الحبُّ فيهما من فؤاد كمي

في آية[1] الخلق أنت السرُّ لا أحدٌ ولو تجلَّيت ما أبقيتَ منْ عِصَمِ
لأجل معناك ما تلقى وما لَقِيَتْ قوافل القوم في الوِديان والأكَمِ

* * *

رهباننا انقطعت عنَّا بأديرةٍ وكلُّ منقطعٍ في الدَّير عنك عَمِي
لا يرتضي القومُ عن حاناتهم بدلًا بالرُّغم من أنَّ ساقي الناشئين ظمي

* * *

أنا - وفي غزلياتي الَّتي اشتهرتْ بصيصُ نارٍ ذَكَتْ مِنْ صالفِ القِدَمِ -
حكايتي البحث عن قومٍ هنا عُدِمتْ أخبارُهم وهنا سادوا على الأمم

* * *

لِلشَّوك كالوَرْدِ حظٌّ من نسائمكم ونسمةُ الصبح للرَّيحان والسَّلَم
أنا أعِيْبُ على وردٍ بلا جذلٍ كما أعيب على شوكٍ بلا ألم

* * *

هذا الغناءُ الَّذي ماج الرجاءُ به تسيل أنفاسُه من مُهْجتي ودمي
كما تسيلُ دماءُ العازفين على أوتارِهم وتروّىٰ من أكفِّهمِ

* * *

فلا تدع لهياج القَلْب فرصتَه فإنَّ ذلك يعني فرصةَ العَدَمِ
أرجو جدائل هذا الشعر تنصفني بموجةٍ من معاني هذه اللَّمَمِ

(٤)

اللَّوح أنت وما في اللَّوحِ من قَدَرٍ وكلُّ ما فيه من سطرٍ ومن كَلِمِ

---

(١) يبدو أن إقبالًا في المقاطع الثلاثة اللاحقة يخاطب الله عزَّ وجلَّ ومع ذلك فإن هذا التأويل غير مؤكد .
ويرى تشيشتي أنَّ الحبيب هنا وفيما بعد هو النبي ﷺ .

لـو تنطـقُ القبَّـة الـزرقـاء مـا كَـذَبَـتْ بـــأنَّهـــا ذَرَّةٌ فـــي بحـــرِكَ العَـــرِمِ

* * *

لـك الجـلالُ الـذي لـم تبـقَ روعتُـه مِـنْ ملـك سِنْجـار إلا عبـرةَ النَّـدم
لـولا جمـالُـك مـا ذاق الجُنَيْـدُ نـوىً ولا أهيـل علـى طيفـورَ بـالتُّهَـمِ
نـداكَ لا تَعْـرِفُ الأنسـابَ نفحتُـهُ يا منْ غَمَرْتَ جميعَ النَّاس بالكَرَمِ
إنْ لم تكن نُصْبَ عيني في الصَّلاة فلا قامت على الزُّور في محرابها قدمي

* * *

مذاهبُ الفِكْر منْ بحثِ الغيابِ وَهَتْ ومشهدُ الحبِّ منْ وَثْب الحضورِ دمي
بالرُّغم من ثورةٍ للشَّمسِ ساطعةٍ ما زالتِ الأرضُ في بحرٍ من الظُّلَمِ

* * *

(٥)

أنـا ـ وتعـرف أيـامـي التـي سلفـت وما تحمَّلْتُ من كدِّي ومن سأمي ـ
مـا كنـتُ أعـرفُ أنَّ العلـمَ مضيعـةٌ وأنَّـــه سبـــبُ الأطمـــاع والنَّهَـــمِ

* * *

هززتُ كلَّ نخيلِ الفِكْرِ ما سَقَطَتْ علـيَّ غيـرُ عـراجيـنٍ مـن الهَـرَمِ
لقـد تيقَّـظ وِجـداني الَّـذي عَصَفَـتْ بـــه مقـــالاتُ مـــوتـــورٍ ومُنْتَقِـــمِ

* * *

الفِكْـرُ مـن حيـث تـأتيـه أبـو لهـبٍ وكلُّـــه كلُّـــه مكـــرٌ مِـــنَ الأمَـــمِ
والحبُّ حيث يكون المصطفى يدُه وكلُّـــه كلُّـــه مـــن مقلتيـــه نُمِـــي

* * *

أخـذتُ عنـه فنـونَ الحـبِّ فـاغتنمـوا مذاهبَ الحبِّ في شعري وفي حِكَمي

نهايةُ الحبِّ أحلى من بدايته وربما صَحَّتِ الأجسام بالسَّقَمِ

***

وليس أغربُ منه عند مُبْتَدَأ وليس أعْجَبُ منه عند مُخْتَتَمِ
إذا رماك فما للقلبِ منْ حِيَلٍ وإنْ جُرِحتَ فجرحٌ غيرُ ملتئم

***

يا سائلي عن فراقي بعد ليلتنا وعن حظوظي من البلوى وعن قِسَمي
فراقُه رغبةٌ في القَلْب محرقةٌ وصرخةٌ من صُراخِ الفَجْرِ ملءُ فمي
أهلُ الوِصال لهم قلبٌ بلا طَلَبٍ وأيُّ معنىً لقلبٍ غيرِ مُضْطَرمِ
وهل لقطرةِ ماءٍ مجدُ تسميةٍ إلا إذا نُبِذَتْ من عجمة الدِّيم

***

حاولتُ لما تجلَّى أنْ أشاهده وسوَّلت لي نفسي هَتْكَةَ الحُرَمِ
بالرُّغم من أن طرفي في الهوى وقحٌ أغضيتُ لمَّا تجلَّى خشيةَ الدَّهَمِ

***

الفراشةُ واليراعة

قال الفراشُ لنفسه لمَّا رأى رَقْصَ اليَراع على المِدَاد الأسودِ
كمْ في حياتِك من غبيٍّ أحمقٍ ما ذاقَ تصليةً بنارِ المَوْقِد
سمعَ اليَراعُ كلامَه فأجابَه حاشا لأمثالي بمثلِك تقتدي
حمداً لربِّي ما خُلِقْتُ فراشةً بجناحها وسمُ العبيد الرُّقَّد
أنا لست أستجدي سواي تسوُّلاً أنا في فؤادي جُذْوتي وتوقُّدي

***

وصية « إقبال » لولده « جاويد »

أبنيَّ ! لحنُ الذَّات في أعماقنا ... باقٍ يدلُّ على خلود حياتِهِ
أبنيَّ ! ليلُ الشَّعب ليس يضيئُه ... إلا تصلِّيه بشعلةِ ذاتِهِ
أبنيّ ! قولك : كان آدمَ جدُّنا ... مَلِكاً لهذي الأرض قولُ نبيهِ
فيه مِنَ الإيمانِ ألفُ حقيقةٍ ... ومِنَ التألُّق ألفُ نوعٍ فيهِ
أبنيَّ ! لن يصل الغرابُ لعشِّنا ... مهما استطالت في السَّماءِ قواهُ
هذي الشَّواهينُ التي يلهو بها ... أبناءُ سيِّدهِ الذي ربَّاه
أبنيَّ ! صان الله وجْهَك عالياً ... ما في زمانِك منْ يَصُوْنُ حياءَهُ
إيَّاك أن يأتي لقبري زائرٌ ... ويقولُ لي جاويدُ يبذلُ ماءَهُ
إقبالُ ما رضيَ الترهُّبَ سيرةً ... لنقاءِ فكرته وخِصْبِ فؤادِهِ
أبنيَّ ! ليس بُنيَّ إلا مَنْ روى ... بوصيتي هذي جميعَ بلادِهِ

***

تسول

صاحَ في الحانة سكِّيرٌ ظريفْ ... إنَّما السُّلطان شحَّاذٌ جَلِفْ
أيُّكُمْ يخرجُ عن بزَّتِهِ ... طمعاً في ذلك التَّاج الصَّلِفْ
أيُّكُمْ يُصْبح عُريانَ لِكَيْ ... يرتدي في القَصْر ثوباً منْ ذَهَبْ
كأسُه حمراءُ في لون الشَّقيق ... وعليها من دَمِ النَّاس حَبَبْ
كلُّ ما في قَصْرِه جَمَّعَهُ ... بقرارٍ مُجْحفٍ إثرَ قرار
ليس مَنْ يَسْرِقُ في جِنْحِ الدُّجى ... مثلَ مَنْ يَسْرِق في وَضَحِ النَّهارْ
كَمْ بذاكَ الحَقْلِ من فلاَّحةٍ ... شَحَذوا منْها طعاماً للدَّجَاجْ
بلِّغوهم أنَّني قلتُ لكم ... إنَّما الشَّحاذُ منْ سنِّ الخراجْ

***

المُلاَّ والفردوس

أنـــا أيضـــاً كنـــتُ لكـــنْ ... مـــا تحمَّلـــتُ السُّكـــوت
كنـــتُ مِـــنْ شـــدَّةِ غيظـــي ... أتمنَّـــى أنْ أمـــوت
كنـــتُ إذْ بَشَّـــرتِ الحجَّـــابُ بـــالفـــردوسِ (مُـــلاّ)
فتقـــدَّمـــتُ أنـــادي : ... عفـــوكَ اللهـــمَّ كـــلاَّ
ليـــس للمُـــلاَّ اهتمـــامٌ ... بمغـــانيـــك وحـــورك
هـــو سكـــرانُ ، نعـــمْ سكـــران ، مـــنْ غيـــر خمـــورك
مـــا درى مـــن لُجَّـــة الـــذَّوقِ ســـوى قيـــلَ وقـــالْ
يَحْسَـــبُ الـــدِّيـــنَ الـــذي أنـــزلـــتَ تـــاريـــخَ جـــدالْ
أنـــا لا أرضـــى لنفســـي ... أنْ أرى عبـــدي جبـــانـــا
كيـــفَ تـــرضـــاهُ زعيمـــاً ... وهـــو لا يُحْسِـــنُ شـــانـــا
لـــم يَعُـــدْ يـــأبـــهُ إنســـانٌ بمـــلاّكَ المنفِّـــر
فـــإذا مـــا جـــاء يـــومـــاً ... قيـــل قـــد جـــاء المكفِّـــر
لا يـــرى فـــي خَلْقِـــكَ المسكيـــنَ إلَّاهُ مُطيعـــا
كيـــف تـــرضـــى عـــن غبـــيٍّ ... كفَّـــر النـــاسَ جميعـــا
ليـــس فـــي الفـــردوس ذكـــرٌ ... لكهـــوفٍ وصـــوامِـــع
إنَّمـــا الفـــردوسُ فيـــضُ الحـــبِّ مـــن صَـــدْرِ الجـــوامـــع

* * *

الدِّينُ والسِّياسة

عنـدي لـرهبنـةِ الكنـائـسِ طُـرْفَـةٌ ... فهَلُـمَّ نَضْحَـكُ للحيـاة قليـلا
بُنيـتْ لأعـداء الملـوكِ وأصبحـتْ ... للطـامعيـنَ مـن الملـوكِ سبيـلا

رأسُ الكنيسة في الوَدَاعة غارقٌ ... والقَصْرُ فوقَ النَّاس يرفعُ أنفَه
تنوي المضيَّ فيستبدُّ أمامَها ... وتريدُ تلعنه فتمشي خلفَه
هذا التناقضُ كيفَ أمكنَ دمْجُهُ ... سبحانَك اللهمَّ ربَّ النَّارِ
ما لِلْقُصورِ وللكنائسِ حيلةٌ ... في النَّاس غير تبادلِ الأدوار
فصلوا عن الدِّين السياسةَ بعدما ... وصلوا بفتنتهم إلى التِّيجانِ
وتطاول البابا فقيل له : استرِخ ... أصبحْتَ سلطاناً بلا سُلطانِ
وتلفَّتَ الشَّعبُ الجريحُ فلم يجدْ ... حظّاً له من ذلك التغييرِ
كانتْ مصالحَ راهبٍ ومتوَّجٍ ... صارتْ مصالحَ حاكمٍ ووزيرِ
ثنويةٌ لم تُبقِ درباً صاحياً ... سقتِ الدِّيانةُ كأسَها والدَّارا
هي في اليسار وفي اليمين مقيمةٌ ... تُزْجي التناقضَ يمنةً ويسارا
هي لعنةُ الدُّنيا كما أفضى لنا ... بالسرِّ هذا سيِّدُ الصَّحْراء
لن تعرفَ النَّاسُ السَّلامةَ ساعةً ... إنْ لم تَقُمْ من حُمْقِ هذا الدَّاء
أبداً مرقَّعةُ الجُنَيْد لِوَحْدِها ... لن تستطيعَ لأمرنا ترقيعا
إنْ لم يكنْ هو أردشير صراحةً ... خَرَقَ الطرائقَ أردشيرُ جميعا

* * *

الأرض لله[1]

الحَبُّ ذو العَصْفِ والرَّيحان يُنْبِتُه ... من ظلمة الطِّين ربُّ الحبِّ والطِّينِ
والغَيْمُ من لُجَجِ الأمواجِ يَرْفَعُه ... إلى السَّموات سلطانُ السَّلاطينِ
يسوقُ للزَّهر أنساماً تهيِّجُها ... فيطلقُ الزَّهرُ أنغام البساتين
للشَّمس من نورِه طوقٌ يزيِّنها ... وللنَّدى نسبٌ من حوره العينِ

---

(١) العنوان مقتبس من قوله تعالى : ﴿ . . . إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

فقلْ لصاحبِ تاجٍ يدَّعيه له أفِقْ فإنَّك مسكينُ المساكين
مالي ومالَكَ من هذا التُّرابِ سوى ضجيجٍ حين نُولِّي عنه في حَيْنِ
الأرضُ لله يعطيها أحبَّته والحُبُّ عاقِبَةُ الغرِّ الميامينِ

* * *

رسالة إلى شاب

سَجَّادُكَ العَجَمِيُّ هذا والأثاثُ الإنكليزي
ماذا يفيدك يا عزيزي !
ماذا تفيدك ثروةٌ حصَّلْتَها في مثل أبَّهة الملوك بذلتَها
أبكي لأجلك يا عزيزي !
هل ذُقْتَ يوماً غِبْطَةَ الإيمانِ أو بأس حيدرَ أو رضا سلمانِ
ارحم شبابك يا عزيزي !
سلعُ الحضارة لا تقاسُ بذاتكَا أتظنُّها ثمناً لكلِّ حياتكَا
أخطأت جِدّاً يا عزيزي !
المؤمنُ الصدِّيق سيِّدُ ساعته ورقيُّ عالمه رقيُّ قناعته
فاعرِف مكانَك يا عزيزي !
لو دَبَّ روح النِّسْر في قلب الشَّبابْ لم يبحثوا عن سِرِّهم بين التُّرابْ
إيَّاك تيأسُ يا عزيزي !
باليأسِ معرفةُ الفتى تغتالُه وبصيرته والمؤمنُ الصدِّيق برهانُ الإله سريرتُهْ
فاربأْ بنفسِك يا عزيزي !
يا أيُّها الشَّاهين عُشُّك ليس في قصر الملوك لو كنت شاهين الجبال حقيقةً ما أمْسَكُوك
فارْجِعْ لعُشِّك يا عزيزي !

* * *

نصيحة

قالَ للبازِ الفتى نَسْرٌ عجوزْ ... أنت في الجوِّ كما شِئْتَ تجوزْ
لي رموزٌ كنتُ قد حصَّلتُها ... من شبابي فاغتنمْ هذي الرُّموز
لا تقلْ أصلي وفصلي أبداً ... قيمةُ الشَّاهينِ في أخلاقِهِ
إنَّما الشَّاهين من يَحْرُقُه ... دمُهُ الشَّخصيُّ في أعماقِهِ
قسوةُ التَّدريبِ روحُ السُّؤددِ ... لا تضيِّعْه سدىً هذا الكلامْ
سترى قيمتَه يا ولدي ! ... حين تنقضُّ على فَرْخِ الحمامْ
ما أرينا فرحةً أمتعُ من ... فرحةِ المنقضِّ من أفقِ السَّماء
فرحٌ والله لا يعدلُه ... فرحٌ ، حتى ولا سفكُ الدِّماء !

* * *

شقائق النعمان في الغاب[1]

لِمَنِ السَّماءُ تزيَّنتْ بلآلي ... والدَّيرُ من أهلِ الصَّبابة خالِ
أشقيقةَ النُّعمان هل تجدين في ... تلك البراري من يرُقُّ لحالي

---

(١) شقائق النعمان رمز العلمانية والمادية والعقلانية التي تنكر ما يقابلها كما يرى إقبال . وعلى العموم هي رمزٌ لكل ما ليس لظاهره معنىً يجانسه ، فشقائق النعمان حمراء كالنار ، إلا أنها لا تحرق هي كالدم إلا أنها تفتقر لحيويته فلذلك ينبذها البستان على ضفافه .
قال إقبال في ديوان الأسرار والرموز (٦٩) في حديثه عن نار الشقائق : إنَّ هذه النار الباردة تمحوها نار دموعي إلا أن إقبالاً يعود فيقول : إن هذه الشقائق تحترق لأنها ضيعتْ معناها .

ولهيب دائم دين الشقيق ... دمه من ذاك يسري في العروق

إلا أنه ليس من السهل السيطرة على رموز إقبال التي تظهر أحياناً وكأنها زئبق لمعانيه ، وهي تتبادل الأدوار من أجل تحقيق هدفٍ واحد .

هي رُغم ما تبدي رحابةَ صدرها ... قفصٌ يضيق بمثله أمثالي
سافرتِ تائهةً وتهتُ مسافراً ... فتعالَيْ نَقْتسمِ الهمومَ تعالَيْ
وعلام أيَّتُها الشقيقةُ سيرنا ... وإلامَ هذا الكدُّ في التَّرْحال
موسى غريبٌ عن نوى وديانيا ... وشتاتُ بالِك في الجبال وبالي
سيناءُ أنتِ ونار واديها أنا ... وأنا تجلِّيها وأنتِ جبالي
مِنْ ذلكَ الغَوَّاصُ أخرجَ درَّنا ... من بين أوصالٍ ومن أوحالِ !
هل كان مَخْفيَّاً فرام ظهورَه ... أم فرحةً بتفوُّقٍ وتعالي !
البحرُ تكشف ما يكابدُ قطرةٌ ... منه وتَفْضَحُ سرَّه في الحالِ !
شاهدتُ زوبعةً تئنُّ لموجةٍ ... فسألتها فاستغربتْ لسؤالي
قالتْ : ألا تبكي لثورةِ موجةٍ ... لم تلطم الشَّطَّ الغبيَّ السَّالي
أتعيقُها تلك الرِّمالُ أمامها ... وأنا أجرُّ إلى السَّماءِ رمالي

***

آلامُ آدمَ شمسُ كلِّ حقيقةٍ ... والشَّمْسُ تشهدُ لي بصدقِ مقالي
هذا الوجودُ بِصَمْتِه وحماسه ... لك يا بنَ آدم يا كبيرَ الآلِ

***

قطعة

إقبال غنَّى أمَامَ الرَّوض أغنيةً ... رشيقةً هيَّجت في الرَّوض شكواهُ
ما كنتُ كالزَّهر رَهْنُ الرِّيح عالَمُهُ ... إنْ شاء مزَّقه أو شاءَ أبقاهُ
أمشي ويمشي جنوني في الطَّريقِ معي ... ولا يمزِّق ثوبي غير حُمَّاهُ

***

كتاب السَّاقي

(١)

نَثَـرَ الـرَّبيـع علـى الفـلا يَـدَهُ وأطلـقَ عسكـرهْ
وتحـوَّل الـوادي إلـى حـانٍ فقـامَ وأسكـرهْ
الـوردُ والنِّسـريـن يُمْسـكُ بـالأكـفِّ وبـالقـدودْ
فـي صَبْغَـةٍ ألـوانهـا مـن كـلِّ مـا خَلَـعَ الـوجـود
وشقـائـقُ النُّعمـان تَـرْقُـصُ فـي الـوِشـاح الأحمـرِ
مـا بيـنَ بسمـةِ أبيـضٍ يـرنـو وغَمْـزَةِ أسمـرِ
وتـرى السمـاءَ مـن السُّـرور تكـادُ تَسْقُـطُ فـي الفِجَـاجْ
ونـدى النسيـمِ خـلال زُرْقتهـا تكسَّـر كـالـزُّجـاجْ
وتـدفَّـق الـدَّمُ فـي الحِجْـر ومضـى يكـابـد مـا هجـرْ
والقُبَّـراتُ تـركـن فـي الأعشـاشِ أغـلال الشَّجَـرْ

* * *

آهٍ لهـذا الجـدولِ المحـزونِ يَقْفـزُ فـي الـوِهـادْ
لا يشتكـي ضيْـقَ الحيـاةِ ولا يَمَـلُّ مـن الجهـادْ
ينسـابُ ، يَـرْقُـدُ ، يستقـرُّ ، يهيـجُ ، يَصْخَـبُ ، يلتـوي
يـروي الجلـوسَ علـى الضِّفـاف وبـالتمـرُّق يـرتـوي
وإذا تجمَّعـتِ الصُّخـورُ عليـه شتَّـت حـزبَهـا
واختـارَ مـن ثغـراتهـا دربـاً ومـزَّق قلبَهـا
يـا أيُّهـا السَّـاقـي فهـاتِ مـن الكـؤوسِ مـن الـدِّنـان
لا تُثْخـنِ القلـبَ الجـريـحَ وأنـتَ أجْـدَرُ بـالحَنَـان

هـــذي الشَّقـــائـــقُ جـــوقـــةٌ بـــالســـرِّ تَـــرْقُـــصُ فـــي الطَّـــريـــق
دعنـــي أبـــدِّدُ خمـــرتـــي أسفـــاً علـــى الكـــأسِ العتيـــق
مـــا كـــلُّ مـــا دار السُّقـــاةُ بـــه تـــدورُ بـــه القلـــوب
أنـــا أطلـــب الخَمْـــرَ التـــي كـــانـــت تُشَـــوِّقُ لهـــا الجيـــوب
كـــانـــت تَفِيْـــضُ كـــآبـــةً كـــالـــوَرْدِ يَـــذْبُـــل فـــي الخُـــدود
فتُســـرُّ إشكـــالاتنـــا وتـــذيـــعُ أســـرارَ الخلـــودْ
أيُّهـــا السَّـــاقـــي هتِّـــك الأستـــار
عُمْـــرُنـــا البـــاقـــي جلـــوةُ الأســـرار
لـــذَّةُ التَّلحيـــن ليـــس فـــي الأوتـــار
يَصْـــرَعُ الشَّـــاهيـــنُ أصغـــرَ الأطيـــارْ

* * *

(٢)

بـــدَّلـــتَ أنغـــامَ الـــزَّمـــانِ ونـــوطـــةَ العَـــزْفِ البليـــد
وتـــداخلـــت آلاتُـــه وتمـــرَّد النَّغَـــمُ الجـــديـــد
فَـــرِحٌ للُغْـــزِ الإنكليـــز وللَّـــذي عـــرَّىٰ غـــرورهْ
ولأن ذات الســـرِّ يَعْكـــسُ مـــن زُجـــاج الصِّيـــن نـــورَهْ
هُـــوذا علـــى مـــرأى وسمْـــعِ الكـــون يَـــرْقُـــصُ فـــي المـــرايـــا
ويجيـــش فـــي (آلـــونـــد) يلمـــعُ فـــي رؤوس الهيمـــلايـــا
فَـــرِحٌ لأنَّ الأرضَ تَلْفـــظُ كـــلَّ سلطـــانٍ مهيـــنْ
وتُعَلِّـــم الشَّعْـــبَ المكبَّـــلَ كيـــف يـــأخـــذ بـــاليميـــنْ
فَـــرِحٌ لأنَّ الـــرأسمـــال ينـــالُ منـــه جنـــونُ طـــورِهْ
ولأنَّـــه كـــالسَّـــاحـــر المفضـــوحِ بعـــد أداء دورِهْ

* * *

لم يبق إلا الرُّوحُ تلكَ وذلك الشَّعبُ العراءْ
نزلت على سيناء صعقتُها فَلَمْلَمَها جِراءْ
ما مسلماً مَنْ يسأل التَّوحيد يَصْقُل فأسَه
لِيُحَطِّمَ الأصنامَ أجمَعَها ويتركَ نفسه
نفسٌ أقام لأجلها ما شاءَ من أصنامِه
ويريدُها صنماً يرافِقُه إلى إسلامِهِ
هذا هو الصَّنَمُ الذي شيطانُه عَقْلُ العليم
خُدَّامُه أهلُ الطَّريق كتابه العلمُ الأليم
أسفاً لحقٍّ يتركُ الطَّاغوتَ يودعُه صروحه
ويرى الفقير يكاد يَلفِظُ في خِضَمِّ الجهلِ روحَه
كلماتُه هذا المبشِّرُ تَجْذِبُ القَلْبَ الغرير
لكنَّ ذوق الحبِّ يَنْقُصُها ويَنْقُصُه الكثيرْ
وله مواعِظُهُ ينظِّمها بدقَّةِ منطقه
لكنَّها سرعان ما تخفى بِعُقْدَة رونقه
حتى المريدُ فؤادُه بقيودِ سُبْحَتِه أسير
حبَّاتُ فخٍّ أوْقَعَتْه وكوان شاهيناً يَطِيرْ
هذا المسافرُ كيف يرجعُ من ظُنونِ الارتقاء
هو نفسُه ما عادَ يَعْرِف ما الفناءُ وما البَقاء
خَمَدَتْ حقيقتُه ونارُ الحبِّ تاهَتْ في فؤاده
فإذا هو المتحرِّق المجنونُ يَشْحَطُ في رمادِهْ

(٣)

قلوبُ القَوْم ما عرفتْ كلذَّة خمركَ الباقي

(أدرْ كأساً وناوِلها ألا يا أيُّها السَّاقي[1])
رمادِيٌّ ذَرُ أجنحةٍ ببابِ السرِّ تكتظُّ
وما مِنْ ذرةٍ إلّا لها مِنْ حبِّنا حظُّ
بودِّي أنْ أرى شيخاً يغيِّر وضعنا هذا
يقومُ ويجعلُ التِّلميذَ للأستاذ أستاذا
يخاف البازُ عصفوراً يُقَلِّمُ ظُفرَ مخلبهِ
فآتِ شبابنا نوراً تفيضُ على الشُّيوخ بهِ
وخلِّصهم بما تختار من قيدِ العبوديَّهْ
ولو ألقيْتَهم حطباً بنيرانِ الوجوديَّه
تصرَّفْ بالجنونِ لهم وفجِّرهْ بهمْ شُعبَا
فليسوا شعبةً منه إذا لَمْ يسقطوا تعبا
شبابٌ لا يليق بهم مثالُ الجَمْرِ في ضَرَمِهْ
كقلبِ المرتضى بأساً وكالصِّدِّيق في كَرَمِهْ
بظلِّ جمالك الريّانِ أورقَ شِعْبُنا اليبسُ
ولمَّا أنْ بخِلَتْ به توقَّف ذلك النَّفَسُ
أسَهْمكَ لم يعد يقوى على تجريحِ أمثالي
أمِ الرَّكبُ الذي ترميه أصبحَ فارغَ البالِ
سألْتُك هذه الحسناءُ تُطْلِقُها من الخدْرِ
ليعرفَ عُذَّلي معنى لهيبِ العِشْقِ في صدري
بشعري ضعْ لهم شَرَكاً وهاتِ الحبَّ من سَلْبي

---

(١) ذكر العلامة السودي في شرحه التركي على ديوان حافظ أن هذا البيت الذي افتتح به حافظ ديوانه هو من قصيدة ليزيد بن معاوية وقد عاب بعض الشعراء على حافظ الشيرازي فعلته هذه .
انظر العقد الجوهري شرح ديوان الجزري ، ص٣ .

وخـــلٌ حُســـامَـــك الهنـــديّ يجـــرحُ كـــلَّ ذي قلـــبِ
مـــرادي رشـــفُ أســـرارٍ تـــؤوِّل راحـــة اليـــأسِ
وإلا قلـــتُ للطـــلاب مـــا أخفيـــهِ فـــي نفســـي
ركبنـــا البحـــر فـــي فلـــكٍ بـــأعينـــه صنعنـــاهُ
فـــأجـــرى الـــرِّيـــحُ عـــاصفـــةً وعكـــسَ الـــرِّيـــح أجـــراهُ
ذوتْ عينـــايَ مـــن أرقٍ علـــى قلـــقٍ طـــوىٰ جَنبـــي
وهـــذا الـــدَّمْـــعُ فـــي عينـــيَّ طـــلٌّ مِـــنْ نـــدى قلبـــي

* * *

خُشـــوعـــي فـــي عَـــذابـــاتـــي وَوَثْبـــي فـــي طُمـــوحـــاتـــي
ونـــوعُ طـــرقتـــي هـــذي الَّتـــي أمحـــو بهـــا ذاتـــي
وفكـــري وهـــو بُستـــانٌ ونفســـي وهـــيَ مـــرآتـــي
وحِضْـــنُ يقينهـــا المُضْنـــى وجَيْـــشُ ظنـــونهـــا العـــاتـــي
وقلبـــي وهـــو ميـــدانٌ تَضِـــجُّ بـــه عـــراكـــاتـــي
ودروشتـــي الَّتـــي تبـــدو نصيبـــي مـــن مُعـــانـــاتـــي
ســـألتُـــك أن تعتِّقهـــا وتَمْـــزُجَهـــا بـــآهـــاتـــي
وتسقيهـــا لقـــافلتـــي بمـــوكـــبِ جيلنـــا الآتـــي

(٤)

إنَّـــه البحـــرُ دائـــمُ الحـــركـــات وثبـــةٌ بعـــد وثبـــةٍ فـــي الحيـــاةِ
ذاكَ بحـــرٌ مـــن الحيـــاة تجلَّـــى واحـــداً فـــي تمـــوُّجـــات الـــذَّواتِ
اللَّهيـــبُ الـــذي تـــأجَّـــجَ فينـــا والَّـــذي يحتـــوي جنـــونَ الـــدُّخـــانِ
يـــرفـــضُ المُكْـــثَ بيـــن مـــاءٍ وطيـــنٍ وهـــو راضٍ عـــن كـــلِّ مـــا يصنعـــانِ
مـــا الَّـــذي يطلـــبُ اللهيـــبُ بهـــذا إنَّـــه قـــاطـــنٌ وســـارٍ بـــآنِ
فـــي فـــرارٍ إلـــى السَّمـــاء تـــراهُ حَـــذِرَ المَـــوْتِ فـــي شِبَـــاك المعـــانـــي

إنَّهـا الـوَحْـدةُ الَّتـي كبَّلتْهـا ... حلقـاتُ التَّعَـدُّديَّـة هـذي
رُغْـمَ كـلِّ التَّعـدُّديَّـة تبقـى ... وَحْـدةٌ مـا لهـا نظيـرٌ محـاذي
إنَّ أبعـاد مَعْبَـدِ العصـرِ هـذا ... ذاتُ أبعـاده القـديمـة ستَّـهْ[1]
ولسـومنـاتَ كـلِّ عصـرٍ وجـودٌ ... إنَّ سـومنـاث لا يُكَـرِّرُ نَحْتَـهْ
نحـنُ فـي ظلِّـه معـاً واختـلافـي ... عنـك يـا أنـت كـاختـلافـك عنِّـي
واللهيـبُ الـذي تـأجَّـجَ فينـا ... خلـق الحـادثـاتِ منـك ومنِّـي
حلقـاتُ اللهيـب نحـنُ ولكـن ... هـو فـي قلبهـا يظـلُّ وحيـدا
فـي بـروقٍ وفـي نجـومٍ مُشـعٍّ ... تَسْبُـك التِّبْـرَ نـارُهُ والحـديـدا
فـي غيـاضٍ وفـي ريـاضٍ مقيـمٌ ... كـلُّ مـا فـاضَ فيهمـا فـاضَ عنـه
لا يَعِـبْ زهـرك المُفَتَّـح شـوكـي ... كـلُّ شـوكـي وكـلُّ زهـركَ منـه
ليـتَ شِعْـري يفيـدُ كيـدُك هـذا ؟ ... ليت شعري عرفتُ ما هو كيدُهُ
هـو ذا يَنْسِـفُ الجبـال بحـزمٍ ... هـوذا الحُـورُ والملائـك صَيْـدُه
هـو حينـاً تـراه بـازاً وحينـاً ... حَجَـلاً فـي دمـائـه يتشحَّـطْ
وهـو حينـاً حمـامـةٌ دون عُـشٍّ ... فـي شِبَـاكٍ حِيَـالَـه تَتَخَبَّـطْ

(٥)

الـرَّاحـةُ الكُبـرى بقلبـكَ والسَّكينـةُ خُـدْعَتـانْ
فـالكـونُ ذرَّاتٌ يهيِّجهـا بـرقصتـه الـزَّمـان
وقـوافـلُ الأشيـاء فـي الآفـاق تَضْـرب بـالـدُّفـوفْ
وتـروح تُمْعـنُ فـي التَّجَـدُّد لا تفكِّـر بـالـوُقـوف
السَّيْـرُ معنـاهـا العَمِيْـقُ بـه تَجُـول بـه تَصُـولْ
فَـدَعِ الـوُصـول لمـن يـريـد فليـس مَطْلَبُنـا الـوُصـول

---

(١) اهتمَّ إقبال بنظريات « أنيشتين » التي وضعت حداً للهندسة التقليدية (الأستاذ الملوحي في ترجمته النثرية) .

تَـــوْقٌ إلـــى الطَّيـــرانِ يتـــركُ ســـرَّهـــا يتفطَّـــر
وتحـــسُّ راحـــة صَـــدْرِهـــا فـــي وثبـــةٍ لا تَفْتُـــرُ
وتَحِـــلُّ ، تَعْقِـــد مـــا تَحِـــلُّ ، تُقيْـــمُ تهْـــدِمُ مـــا تُقيـــمُ
فِـــرْدَوْسُهـــا أن تستمـــرَّ وروحُهـــا السَّيـــرُ المُقيـــمُ
وإذا ابتـــداهـــا المـــوتُ وهـــو النِّـــد فـــي وَجْـــهِ الحيـــاة
ومـــن العسيـــر كفـــاحُـــه تمضـــي إليـــهِ فـــي ثبـــات
وَبِـــذَوْقِهـــا الثَّنـــويِّ تنقســـمُ اثنتيـــن إلـــى النِّـــزال
وتـــروح تُحْشَـــدُ فـــي السُّهـــول تعـــودُ تُحْشَـــدُ فـــي الجبـــال
كـــالغُصـــنِ إنْ جـــرَّدْتَـــه مـــن سَكْـــرَة الـــدُّنيـــا صحـــا
وازدادَ فـــي وقـــتِ الـــرَّبيـــع تنـــوُّراً وتفتُّحـــا
لا شـــيءَ أســـرعُ مِـــنْ تَـــدَارُكِهـــا لمـــا أَفْسَـــدْتَ منهـــا
الـــوقـــتُ سلسلـــةٌ وكـــلُّ جهـــاتـــه يَصْـــدُرْنَ عنهـــا
شفتـــان فـــي فمهـــا أزلٌ إلـــى أبـــد
الـــوقـــتُ بينهمـــا كـــالنَّفـــس فـــي الجســـد !

(٦)

مـــوجـــةُ الأنفـــاسِ سيـــفٌ جَعَلَتْـــه الـــذَّات حـــدَّا
طَلَبَـــتْ ذاتُـــك شيئـــاً نيلُـــه يَصْعُـــبُ جِـــدّا
هـــذه ذاتُ شَـــريـــدٍ هـــذه ذاتُ مُقيـــمِ
إنَّهـــا اليقظـــةُ والعـــزلـــةُ والســـرُّ الحميـــم
إنَّهـــا الـــذَّات ســـؤالٌ فـــي طـــريـــق المستـــدلّ
مثلمـــا الشَّـــوقُ إلـــى العُـــزْلـــة فـــي وقـــت التجلِّـــي
إنَّـــه البحـــرُ الَّـــذي تحملُـــه قطـــرةُ مـــاءْ
وهـــي فـــي الظُّلمـــة والنُّـــور علـــى حـــدٍّ ســـواء
وُلِـــدَتْ منـــك ومنِّـــي فـــأضعنـــاهـــا كـــلانـــا

وأنـــا أُرْهِـــقُ ظنِّـــي هـــو مِـــنْ أيْـــنَ اجتـــلانـــا
أزلِيَّـــاتـــي وَرَائـــي أبَـــدِيَّـــاتـــي أمـــام
وأنـــا رُغْـــمَ غبـــائـــي طـــامـــحٌ نحـــو التَّمـــام
إنَّهـــا الـــذَّات الَّتـــي تمخـــر فـــي بحـــر الحيـــاهْ
فتُنـــاغـــي لطمـــاتٍ وتُقـــاســـي لطمـــاتْ
عنـــدمـــا تَطْمَـــعْ أن تقلـــب آمـــالَ الشَّبـــاب
تتخفَّـــى وتـــديـــرُ اللَّحـــظَ مـــن تحـــت النِّقـــاب
فتـــرى الصَّخْـــرَ تـــرابـــاً صَعِقـــاً ممَّـــا تُـــديـــر
وتـــرى العـــالـــم وَجْـــداً يتمنَّـــى لـــو يَطِيـــر
إنَّهـــا البَـــذْءُ جميعـــاً إنَّهـــا ذاك الغُبـــار
إنهـــا فـــي البَـــذْرِ أضـــواءٌ وفـــي الصَّخْـــرِ شـــرار
إنَّهـــا فـــي ظُلمـــةِ النُّـــور إذا شـــعَّ النَّهـــارْ
مـــا لهـــا أعلـــى وأدنـــى مـــا لهـــا جـــارٌ ودار
مِـــنْ قليـــلٍ وكثيـــرٍ ويَميـــنٍ ويَســـار
لَـــمْ تَـــزَلْ حِلْـــفَ كفـــاحٍ وانْقـــلاب وانتصـــار
أحـــرقـــتْ آدمَ لمَّـــا جسَّـــدَتْـــه لِلْقَضـــاء
فـــإذا آدمُ لحـــنٌ وإذا الـــذَّاتُ حِـــدَاء
وإذا فـــي بـــؤبـــؤ العَيْـــنِ انطبـــاعـــاتُ السَّمـــاء
قبـــحُ السَّـــلامـــة أنَّهـــا فـــي عيـــن صـــاحبهـــا قـــذى
والعُمْـــرُ حـــربُ الـــذَّاتِ فـــالشَّـــرف الـــرَّفيـــع أو الأذى
الـــذَّاتُ عنـــد تجـــاهـــل الأهـــواء مـــرهمُهـــا الأكيـــد
وتجـــاهُـــلُ الأهـــواء دربُ الـــذَّات والخبـــزُ الـــوحيـــد
(محمـــود) تـــرفـــع رأســـه ذاتٌ تـــؤلِّـــف جنـــده
و (إيـــاز) عنـــد النـــاس مـــلءُ الأرض ممَّـــا عنـــده

لمـــا أراد الغَـــزْنَـــويُّ يحطِّـــم الصنـــم الكبيـــرْ[1]
جـــاؤوا إليـــه بكـــلِّ أصنـــاف الجـــواهـــر والحـــريـــرْ
فـــرمـــى بمـــا جمعـــوه فـــي بحـــرٍ وبـــدَّدَهُ جميعَـــهْ
وأجـــابَ جئـــتُ لِكَـــيْ أحطِّمـــه وَلَيْـــسَ لكـــي أبيعَـــهْ
فَـــلأنْ أسمَّـــى هـــادمَ الأصنـــام خيـــرٌ فـــي السُّلـــوك
مـــن أن أسمَّـــى بـــائـــعَ الأصنـــامِ مـــن بيـــن الملـــوك
ليـــسَ السُّجـــود تهـــدُّل الكتفيـــن مـــن فَـــرْطِ القُعـــود
مـــا كـــان يغنـــي عـــن سجـــودٍ آخـــرٍ فهـــو السُّجـــود
مِـــنْ هـــذه الأصـــواتِ والألـــوانِ عـــالمُنـــا خليـــط
وجَـــلٌّ يطـــارِدُه الفنـــاء مـــن المُحيـــط إلـــى المُحِيـــط
أصنـــامُ ألـــوانٍ وأصـــواتٍ تلـــمُّ الكـــونَ لمَّـــا
أسفـــاً علـــى سمـــعٍ وعيـــنٍ ألَّفـــا عُمْيـــاً وصُمَّـــا
الأمـــرُ مـــرحلـــةٌ ودربُ الـــذات تَـــذْحَـــرُ بـــالمـــراحـــل
مـــا أبعـــدَ الجُـــزُرِ الَّتـــي تغـــريـــك عـــن تلـــك السَّـــواحـــل
يـــا أنـــت نـــارُكَ لـــم تكـــنْ مِـــنْ مـــوقـــدٍ هـــذا لهيبُـــه
ضـــاعـــتْ شـــرارتُـــك الَّتـــي كـــانـــت بنظـــرتهـــا تَهيبُـــه

* * *

عبـــدُك العـــالـــمُ فـــاؤمـــر فهـــو لا يَهْـــرُبُ مِنْـــكَ
غيِّـــرِ المـــوقـــفَ وانظـــرْ إنَّـــه يَصْـــدُرُ عَنْـــكَ
امـــضِ لا تـــركـــن لشـــيءٍ وانـــضُ عـــن كـــونِـــكَ هَـــوْلَـــهْ
لهثـــة الـــرَّاكـــن مِـــنْ سُـــرْعـــة مـــا يبصـــرُ حـــولَـــهْ
ظـــاهـــرُ العـــالـــم سحـــرٌ وعصـــا مـــوســـى ثبـــاتُـــكْ

---

(١) الأبيات ليست في الأصل وإنما هي توضيح لمراد إقبال بقوله : همَّة محمود .

أَسَـــدُ الله الَّـــذي يقتنـــص العـــالـــمَ ذاتُـــك
جـوهـرُ الكـون قـديـمٌ فكـرُك الكشـفُ الجـديـد
أيـنَ كـفٌّ تَنْظِـمُ الجـوْهَـرَ فـي سِلْـكٍ فـريـد
أيُّهـا المسلـمُ فـارقُـبْ نظـرةَ الـدُّنيـا إليـك
فـي مـلاءٍ مـن رجـاءٍ يُعْقَـدُ العَـزْمُ عليـك
إنَّ لـلآمـاد شغـلاً حـولَ أقطـار الـوجـود
عنـدمـا تَكْشِـفُ عـن ذاتـك تُـدعـى للسُّجـود
لسـتُ فيمـا قلتُـه أشـرح لِلْعـالـم قـدرَك
فـأنـا حـاولـتُ حتـى الآن أن تَفْتَـحَ صَـدْرَك
مَـزَّقَ الكلْمـةَ ضيـقٌ عـن معـانٍ نقتفيهـا
نحـنُ مـرآةُ معـانٍ كَـدَرُ الكلْمـة فيهـا
زفـرتـي تُضْـرِمُ صـدري وأنـا بيـن السُّيـوف
غيـر أنَّ القـول مـن خشيتـه يـرجـو الـوقـوف
أنـا مـن كثـرةِ مـا حلَّقْـتُ ألهبـتُ النَّـواحـي
فلـو اجتـزت قليـلاً أحـرقَ النُّـورُ جنـاحـي

* * *

الزَّمن

شُعْلـةُ العُمْـرِ مـن لهيـب الثَّـواني أشْعَلَتْهـا تغيُّـرات الـزَّمـان
غَـدُكَ الطُّعْـمُ فـي حِبَـالـةِ أمـسٍ فتـرفَّـقْ بيـومـك المُتَفـانـي
يَـرْقُـبُ النَّـاسُ طـالعـاً ذا خيـالٍ ويخـوضـون فـي جميـع الأمـاني
وأنـا ذلـك الخيـالُ ولكـنْ يَصْعُبُ اليومَ شرحُ تلك المعاني
يَسْقُـطُ العـالـمُ الجـديـدُ بكـأسـي قطـرةً قطـرةً كـرشـح الـدِّنـان
سُبَـحُ القَـوْم لعبـةٌ فـي يـديهـم أنـا سُبْحتـي ليـالـي زمـانـي

كلُّ حَبَّاتها عَرَفْتُ ولكنْ ... لا أسوِّي بين الجميع بشاني
ولكلٍّ طريقةٌ وسلوكٌ ... بعضها فارسيٌّ وأخرى حِصاني
مرةً أجعلُ الأعنَّة سوطاً ... مرةً أجعلُ السِّياط عِنَاني
لكَ من حفلةِ اللقاء نصيبٌ ... فإذا لم تكنْ فلستَ بجانِ
ليس من عادتي أخبِّىءُ كأساً ... لنديمٍ على كرامةِ حاني
بدءُ هذي التَّعَرُّجات عسيرٌ ... وهي ليستْ تعرُّجات جَبَانِ
وهيَ ليستْ لراصدٍ في غرورٍ ... وهي ليست لمقتفٍ في هَوان
إنَّ عيناً خبيرةً بقُواها ... غيرُ محتاجةٍ لحَمْلِ سِنان
شفَقُ الأفْقِ ذاكَ نهرُ دماءٍ ... فتحمَّلْ نهرَ الدِّماء وعانِ
وانتظرْ مَطْلِع الصَّباح وقهقهْ ... حاكت اللُّغزَ ذاك أسطورتان

* * *

هذه الفِكْرةُ الجريئةُ عرَّتْ ... سلطاتِ الطبيعةِ المستبدَّهْ
إنَّ عُشَّاً هي الصَّواعقُ فيه ... ليس صعباً لمثلها أنْ تَهُدَّه
إنَّها الرِّيح والفضاءُ جميعاً ... إنَّها البحرُ والسَّفينةُ عندهْ
كان جُنْدُ القضاء للموت ذعراً ... فإذا بالقضاء يَقْتُلُ جندَهْ
وإذا أنت جئت بالسَّيفْ طفلاً ... أمسَك الطِّفلُ للجمال فِرِنْدَهْ
ذهبَ العالمُ القديمُ قتيلاً ... أترى يَسْلَمُ المقاتلُ بعدَه
قامر الإنكليز حتى تولَّوا ... وكذا الدَّهر لا يقامِرُ وحدَه
إنَّ هذا الصُّوفيَّ يحمل ناراً ... لا تبالي بريح تلك الشُّكوكِ
ملأ اللهُ دربَه بمعانٍ ... علَّمتْ قلبَه سلوكَ الملوكِ

* * *

آدمُ يُغادرُ جنَّةَ عَدْن
والملائكة تودِّعه

أنـــتَ مـــوهـــوبٌ وإلّا ... لـــم نَجـــدْ للُّغـــزِ حـــلاّ
كُنْـــتَ مـــن طيـــنٍ ويبـــدو ... أنَّ ذاك الطيـــــنَ ولَّـــــى
كـــانـــتِ النَّفخـــة منـــه ... زئبقـــاً فـــي السِـــرِّ حـــلَّ
ويقـــولـــون تـــرابٌ ... قـــل عســـى هـــذا وعـــلَّ
ومـــع النكتـــة هـــذي ... أحمـــلُ العـــالـــم كُـــلاَّ
كَلِـــفٌ بـــالحُسْـــنِ حتَّـــى ... أنـــت فـــي الحُلْـــمِ تَصَلَّـــى
لـــك فـــي الحُلْـــمِ نعيـــمٌ ... يغمـــرُ اليقظـــةَ ظِـــلاَّ
دمعُـــك الصُّبـــحَ لـــدينـــا ... يمـــلأ الجنَّـــة طـــلاَّ
يطلـــبُ الـــرَّوض ليسقـــي ... زهـــره ممَّـــا تملَّـــى
فـــاكشِـــفِ الأســـرارَ وارقُـــصْ ... تَـــرْقُـــصِ الجَـــوْقَـــةُ دلَّا
إنَّمـــا الـــدُّنيـــا بكـــاءٌ ... وغِنَـــاءٌ ليـــس إلا

* * *

روح الأرض تستقبل آدم

فـــأتـــى الأرضَ فقـــالـــت ... إنَّـــه آدمُ جـــاء
أنـــتَ يـــا آدمُ فـــاعلـــمْ ... كُنْـــتَ مـــن طيـــنٍ ومـــاء
حَـــوْلَـــكَ العـــالَـــمُ فـــانظـــرْ ... وتمعَّـــنْ فـــي السَّمـــاء
وراء الحُجْـــبِ حُسْـــنٌ ... فتـــأمَّـــلْ مـــا وراء
لا تكـــنْ نـــافـــذَ صبـــرٍ ... واحتمـــلْ وَهْـــمَ الشَّقـــاء
ضجَّـــةُ العـــالَـــم هـــذا ... حـــربُ خـــوفٍ ورجـــاء
لـــك مـــا فـــي الكـــون مُلْـــكٌ ... مـــن بحـــارٍ وفضـــاء

هـــذه السُّحْـــبُ جميعـــاً هـــذه البِيْـــدُ العَـــراء

(٢)

كنـــتَ مـــن وجـــه مـــلاكٍ فـــي انـــدهـــاشٍ وفنـــاءْ
فَخُـــذِ المـــرآة وانظـــرْ فيـــك أســـرارَ القضـــاءْ
نظـــراتٌ ذاتُ مغـــزىً أطلقَـــتْ ســـرَّ البقـــاء
وشـــراراتُ صـــراخٍ يتعـــالـــى فـــي السَّمـــاء

(٣)

إنَّ ضـــوء الشَّمـــس هـــذا مـــن شـــراراتِـــكَ ضـــاء
عـــالـــمٌ أنـــت جـــديـــدٌ أنـــت والكـــونُ ســـواء
أنـــتَ فـــردوسُـــك ذاتٌ مـــالهـــا قـــطُّ انتهـــاء
جســـدٌ ؟ لا ليـــس هـــذا جســـداً هـــذا جـــزاء
أيُّهـــا الـــزَّهـــرةُ فـــانظـــرْ كيـــفَ تمضـــي فـــي العَطـــاء

(٤)

كـــلُّ أوتـــارِك تبكـــي أيُّهـــا العـــودُ الشَّـــريـــد
كـــلُّ ميـــراثـــك حـــبٌّ فتخيَّـــر مـــا تـــريـــد
سيِّـــدُ الأســـرار فـــي المعبـــد مـــن وقـــتٍ بعيـــد
تنفـــق الـــذَّاتُ وتبلـــى ثـــم تُبْـــدي وتُعِيـــد
ثُـــمَّ فـــي غيـــر كثيـــرٍ تمتطـــي كـــلَّ جـــديـــد

***

قطعة

خطـــاي كمِثْـــل نسيـــمِ الصَّبـــاح تُبْطـــىء حينـــاً وتُسْـــرِع حينـــا
أنـــا شـــوكتـــي إبـــرةٌ للـــورودِ تـــرقـــعُ مـــا انقـــدَّ عبـــر السنينـــا

بـدأبـي كَسَـوْتُ ثيـابَ الحـريـرِ هــذي الشَّقـائـقَ والياسمينـا

* * *

المُرشِدُ والمُرِيد

إقبال وهو التلميذ الهندي يوجه إلى مرشده أسئلةً نجد أجوبتها كاملةً مدرجةً في كتابه (المثنوي) وهو يوردها بنصِّها بالفارسية .

قـالَ إقبـالُ لـرومـيٍّ يـا إمـامَ العـاشقيـن
لـم يـزلْ يمـلأُ سمعـي ذلـكَ القـولُ المبيـن
وتـرُ العـودِ وقشـرُ العـودِ والعـودُ سجـونْ
عنـدمـا تيبَـسُ فيـه يبـسُ اللَّحـنُ الـدَّفيـنْ
عصـرُنـا النشـوان هـذا تنتشـي منـه الظُّنـون
رقصـةُ الأجسـادِ لا تمحـو أسـى القلـبِ الحـزيـن
مبـدأُ العـالـم يـا أستـاذُ مـا شـاؤوا يكـون
ليـس فـي قلـبٍ حضـورٌ أو بـوجـدانٍ يقيـن
كيـف يستـوعـبُ سـراً ذلـكَ الصَّـدْرُ المُهيـن
ردَّ للصِّـدِّيـق مـا يـروي عـن الـوحـي الأميـن
كيـف جَـرَّتـه إلـى الأوهـام قيثـارةُ طيـن
رُغْـمَ مـا أنفقـه للمَجْـد مـن كـدِّ القُـرون
قـال رومـي أيُّ فـرقٍ بيـن لحـنٍ وطنيـن
إنَّ فـنَّ الاستمـاع الحـقَّ سلطـانُ الفنـون
كـالعصـافيـر وليسـت كلُّهـا تـأكـلُ تيـن
قـال : طـوَّفـتُ لأجـل العِلْـم فـي شـرقٍ وغـربِ

وأنـــا الآن وحيـــدٌ والأســـى يمـــلأ قلبـــي

قـــال : هـــذا طـــبُّ كـــفٍّ ليـــس أهـــلاً لعـــلاجِـــكْ

جَعَلَـــتْ منـــكَ مـــريضـــاً فـــي فـــراشٍ مـــن لَجـــاجـــك

اســـألِ الأمَّ عـــلاجـــاً مـــن عقـــاقيـــر الأمـــانْ

إنَّ نصـــف الطـــبِّ مـــن علـــمٍ ونصفـــاً مـــن حنـــانْ

قـــال يـــا مـــنْ شَـــرَحَـــتْ نظـــرتُـــه ضيـــقَ فـــؤادي !

أَمَلـــي أفهـــمُ مـــا تَفْهَـــم مـــن أمـــرِ الجهـــادِ

قـــال : مـــن ســـوَّى لـــك الأصنـــام ســـوَّى لـــك فـــأســـه

وبـــأحجـــار الحبيـــب يضـــربُ الحـــاذقُ كـــأســـه[1]

لا تقـــلْ ليـــت ولـــولا مـــا علـــى همَّـــك بـــاسُ

أنـــت يـــا هـــذا الـــذي يجـــرحُ فـــي الـــدَّهـــر ويـــأســـو

قـــال : حـــورُ الغَـــرْب ألقَـــتْ فِتَـــنَ الشَّـــرق شبـــاكـــا

صَـــرَعَـــتْ ذا اللُّـــبِّ حتـــى لا تـــرى فيـــه حِـــراكـــا

قـــال : يـــا إقبـــال ! احْـــذَرْ ظـــاهـــراً يَطغـــىٰ عليـــكَ

عنـــدمـــا تَفـــرِكُهـــا الفضـــةَ انظـــر ليـــديـــكَ

قـــال : يـــا رومـــي ! وسِحْـــرُ الإنكليـــزيِّ إلامَـــا

يـــأخـــذ الطـــالـــبَ لحمـــاً ثـــم يـــرميـــه عظـــامـــا

قـــال : كـــالعصفـــور إنْ لـــمْ يُكْمِـــلِ الـــريـــشَ وطـــار

هجـــم القـــطُّ عليـــه ورمـــاه للصِّغـــار

قـــال : إنَّ الـــدِّيـــن والقـــوميَّـــة اليـــومَ صـــراعُ

---

(١) في المثنوي (كسر زجاجة الحبيب لا يكون إلا بحجر الحبيب) ومعناه كما شرحه د . كفافي : إنه لاحق لإنسانٍ في أن يميت إنساناً آخر فالله وحده هو الذي يميت سواء كان ذلك بفعل مباشرٍ أو بأمر واجب الاتباع مما نصَّت عليه الشريعة .
انظر ترجمة د . كفافي للمثنوي ص٦١٣ .

ـتَ هـل تـدري بمـاذا ينتهـي هـذا النـزاعُ
ـال : مـا فـي اللَّيـلِ للـزائـف والمحـضِ عيـارْ
ـلُ الـذَّهـب الخـالـصِ إشـراقُ النهـارْ
ـال يـا شيـخ! بمـاذا أمـلأ الـدَّرب القصيـره
ـأيِّ الأمـر أعْنـىٰ بعِيـانٍ أم بَصيـره
ـال : يـا إقبـالُ مـا هـذا الـذي ليـس يَبيـنُ
تكـنْ تُبْصـرُ يعنـي أنـت إنسـانٌ مبيـنُ
ـلأ المُهْجـة حـقٌّ وحبيـبٌ دامـغُ
ـا عـدا ذلـكَ يـا إقبـالُ جـوزٌ فـارغُ
ـال : يـا مـن مـلأ الشَّـرق بمـا يحيـي القُلـوب
ـا الـذي يَعْصِـفُ بـالشَّـرقِ ومـاداء الشُّعـوب
ـال : مـا أعـرف شعبـاً مـات إلا مـات لمَّـا
ـبَ الأحجـار بخـوراً وظـن الشَّهْـد سُمَّـا
ـال : يـا شيـخُ ! وهـذا المسلـمُ الضَّـائـعُ كـونُـهْ
ـه أصبـح ثلجـاً عطـرُه غـابَ ولـونُـهْ
ـال : يـا إقبـالُ ! إنَّ الله لا يظلـمُ شعبـا
ـالُ القَلْـبِ لا تجـرؤ أنْ تَجْـرَح قلبـا
ـال : يـا أستـاذ ! إنَّ السُّـوق والحـقَّ أقـول
ـدَتْ فـالبيـعُ أيُّ البيـع يحظـى بـالقَبـول
ـال : اذهـب واشْتـر الحيـرة بـالعقـل الظَّنيـن[1]
ـه وهـمٌ وظـنٌّ وهـي حـقٌّ ويقيـن
ـال : جيـراني جميعـاً نـدمـاءٌ لـلأميـر

انظر « المثنوي » ترجمة كفافي « حيرة المحب أمام الحبيب لا حيرة من يولِّيه ظهره » ص١٠٢ .

وأنا فوق حصيري حاسرُ الرأس فقير
قال : كن خادمَ حرٍّ قلبُه دون حدود
لا تكنْ في مجلس السُّلطان من بعضِ القرود
إنْ تكُنْ عبداً لإنسانٍ له قلبٌ كبير
هو خيرٌ من طوافٍ بين نُدمانِ الأمير
قال : يا هذا الذي يُسْهِمُ في وَجْدِ الكبار !
ضعتُ منْ قلةِ علمي بين جبرٍ واختيار
قال : يا إقبالُ ! ما الشَّاهين ؟ يبدو كالغُراب
ريشُه يُصْبحُ تاجاً ريشُ هذا للتُّراب
يطلب الموتى غرابٌ ظُفْرُهُ عبءٌ عليه
وترى الشَّاهين يمضي أكْلُه صنعُ يديه
قال : ماذا يأمل الإسلام من هذا السُّلوكْ
ألكي نرضى بفقرٍ أم إلى طيشِ الملوكْ
قال رومي : جنَّة الإسلام في ظل السُّيوف
ليس ما تطلبه الرُّهبان من أمنِ الكهوف
قال : يا أستاذُ ! كيف الخوضُ في ماءٍ وطين
أين ما يوقظُ قلبي وهو في صَدْري سَجين
قال : لا تشمخْ كنعشٍ فوراء النَّعش كفُّ
وتواضعْ كحصانٍ أينما شاء يخفُّ
قال : يا أستاذُ ! أين البعثُ من ضعفِ يقيني
وأنا أجْهَلُ ما أجهلُ من أسرار ديني
قال : ما أنت وهذا ابْعَثِ النَّفس بذاتك
ثم سلْ نفسك ماذا إنَّها دربُ حياتك
قال : يا أستاذُ ! إنَّ الذات تمضي في السَّماء
تحملُ الظُّلمة والنُّور على حدٍّ سواء

مع هذا غابَ عنها ... ما يجلِّيه الفِراقُ
هي مِنْ فَقْدِ التَّجلِّي ... في جحيمٍ لا يُطاقُ
في ازدهارٍ وانهيارٍ ... شأن أربابِ الوصول
هي مما افترسَتْه ... في جراحٍ لا تزول
قال رومي : ليس إلا الحبُّ أهلاً للعراكِ
لكنِ الموضوع (مَنْ يوقعه بين الشِّباكِ)
قال : يا أستاذُ ! قلْ لي ... هل لهذا الشَّعب حَرْقُكْ
أنت للإسلام شمسٌ ... في ضمير الكون شرقُك
قال رومي : كلُّ حَبٍّ ... يرغبُ العُصفورُ نَقْرَهْ
لا تكنْ بُرْعُمَ وردٍ ... تقصفُ الأطفالُ ظهرَهْ
كنْ على حبِّك فخّاراً ... يمنعُ الحائم طولَهْ
واستُرِ البُرْعُمَ واضْرِب ... قصباً نفسَك حولَهْ
قال : يا أستاذُ ! ما الحربُ الَّتي تملأُ جنبَكْ
أنا ما جئتكَ إلا ... قلتَ لي قلبَك قلبَكْ
هو ذا قلبي بِصَدْري ... وأنا حِلْفُ طريقي
بين كدٍّ وخمولٍ ... مِلْءَ مرآتي بريقي
قال : يا إقبالُ لَسْنا ... أهلُ فقهٍ وأصولْ
أنا لي مثلُك قلبٌ ... وكما أنت تقولْ
إنَّما القَلْبُ سماءٌ ... عرشُه في مستواها
وله ربٌّ حواه ... ولها ربٌّ حواها
ما لملك القلبِ يا إقبالُ دربٌ تسلكُهْ
مُنتهى الحكمةِ أنْ تبحثَ عمَّن يَمْلِكُه
قال : يا أستاذُ ! فكري ... للسَّموات دليل
وأنا في الأرض هذي ... خائرُ العَزْمِ ذليل
لِمَ نسترشد بالمُضْلِحِ لا يُصْلِحُ أهلَهْ ؟

ولِمَا العارفُ بالدِّين بغيرِ الدِّين أبلهْ

قال رومي بعدما استرسل في الكون الكبيرْ :

في سماءِ الله يسري مَنْ على الأرض يسير

قال : يا أستاذ ! لا أبْصِرُ في الدَّرْبِ منارا

أين مَنْ يَقْدَحُ للحكمة في صدريَ نارا

قال : يوري العلمَ ناراً يابسُ الخبز الحلالْ

والذي يأكل كدَّ النَّاس يُفْنيه الضَّلالْ

قال : يا أستاذ ! إنَّ العصر يستدعي النِّزالْ

ولهيبَ الشِّعر يخبو وقدُهُ دون اعتزالْ

قال : يا إقبال ! لسنا نَقْصِدُ العزلة قصدا

عندما الأحباب تأتي تُصْبِح الخِلْطَةُ شهْدا

بدِّدِ العُزلةَ واذهبْ من قطيعٍ لِقَطيع

تشتري النَّاسُ فراءً ليس من أجلِ الربيع

قال : أين الهندُ ضاعتْ لا لهيبٌ لا ضياءْ

ورجالُ القَلْبِ فيها تُعَساءٌ أشقياءْ

قال : يا إقبال ! هذي النَّاس لا تعرفُ روحا

أجِّلِ الدمعةَ هذي وكفى اليومَ جروحا

يَلْفظُ الحقُّ بعيداً جَسَداً ما فيه قلبُ

إنَّ ربَّ النَّاس حيٌّ وهو للأحياء ربُّ

كلُّ ما في الشِّعر هذا من صُراخٍ وصياح

ليس ما يُدْهشُ أنْ يذهبَ أدراجَ الرِّياح

* * *

جبريلُ والشَّيطان

التقى سيِّدُنا جبريلُ إبليسَ الرَّجيم
قال : ما شاهدتَ قل لي أيها الخلُّ القديم ؟!
ما جرى في عالم الألوانِ والعِطْرِ الجديدْ
قال : شوقٌ وطموحٌ وبكاءٌ ونشيدْ
قال : ما زالَ حديثُ القوم في الحضرة خلقُكْ
أولا يُمكن أن يُزْقعَ في الجلبابِ خرْقُكْ
قال : هيهاتَ ولكنْ لَسْتَ تدري ما أسرُّ
هو في الظاهر يُشْقِي وهو في الحقِّ يَسُرُّ
قَدَحُ السرِّ الذي أسْكَرني منه تكسَّرْ
ورجوعي للأعالي بعد سُكْري يتعسَّرْ
أنا حتَّى لا أطيقُ العَيْشَ في تلك الأعالي
أنتَ للرَّحمة حالٌ وأنا اللَّعنةُ حالي
ذلك العالم ما معناهُ من غير أوابدْ ؟
إنَّه الموتُ الذي تَعْرِف لولا ما أكابدْ
فإذا كنتُ حياةً بقنوطي للوجود
أترى الواجبَ أبقى في قُنوطي أمْ أعود
قال : لكنْ عندما استنكفتَ كِبْراً أن تطيعَهْ
نالك العارُ ونال الملأَ الأعلى جميعَه
صارَ شُغْلَ الملأ الأعلى أمام الله خوفَهْ
يَهْدرُ الذُّعْرُ عليه تملأ الرِّعدةُ جوفَه
قال : يا جبريل لكنْ جرأتي سرُّ البقاء
وهبتْ للحمأ المسنون شوقاً للنَّماء

أنت في الشاطىء ترنو لِصِراعاتِ المواقف
أنا أم أنت الذي تَصْفَعُه تلكَ العواصف
عندما تَعْصِفُ ريحي لُجَجَ البحر الجليلَهْ
لا يرى إلياس والخضرُ من الواقع حيله
فإذا أمكن يوماً تسألُ الله تعالى
فأنا أرجوك أن تسألَه هذا السؤالا
دمُ منْ ذاك الذي خضَّبَ تاريخ ابن آدمْ[1]
دَمُ منْ هذا (دمي أم دمُه أم دمُ آدم)
صاغني الله تعالى شوكةً تجرحُ قلبه
أنت لا تُتْقِن إلا النَّفْيَ والإثباتَ قربَهْ

* * *

قطعة

بالأمسِ أوصى مُرْشدٌ أصحابَه بوصيةٍ سبحان ربِّكِ منْ وَهَبْ
أغلى وأثمنُ من بحور لآلىء يا ليتَها كُتبتْ بماءٍ منْ ذهبْ
في خمرِ أوروبة لشعبٍ كاملٍ سُمٌّ يُسَمِّمُ ذاتَه وإرادتَهْ
تفني بنيه بالتسكُّع خلفها تمحو مواهبَه تُبيدُ كرامتَهْ

* * *

---

(١) يبدو أن إقبالاً يريد أن يقول : إن ما نفخه الله تعالى في آدم من روحه هو ما في دماء ابن آدم من حنين إلى الخير والشيطان بشوكته الشريرة يسيل تلك الدماء لتسقي نبتة الأرض ، ومن باب آخر يحاول إقبال أن يدافع عن المعتقدات الغيبية في التصور الإسلامي ؛ خاصة وجود الشيطان الذي يجري في الناس مجرى الدم كما في الحديث .

الأذان

قال نجمُ الصُّبح للأفلاك يوماً لاحِيا
أحدٌ منكم رأى آدمَ يوماً صاحيا
سخَّر المريخَ ممَّا قاله نجمُ الصَّباحِ
قال : هل ينفع شيئاً صاحياً أو غير صاحِ
تدركُ الأقدار ما تفعلُ في هذا الظَّلامْ
وأرى الخير لداومته في أنْ تنامْ
قالت الزَّهرة : أفٌّ غيَّروا الموضوع هذا
تُنْفِقُ الليلةَ في الباطلِ واللغو لماذا
فيم نهتمُّ لهذي الذَّرَّةِ العمياءِ قولوا
فأجاب البدر هذا النجم في الأرض يصولُ
نحنُ في الظُّلمة نبدو وهو يبدو في النَّهار
روحُه سرُّ الليالي قلبُه قَطْبُ المدار
وهو لو أدرك معنى سهرِ الليل وذاقَه
جاز أطباق الثُّريا وأرى الله طباقَه
إنَّه في صَدْرِه يستر نوراً باهرا
وهو أطلقه لم يبقِ نجماً ساهرا
فعلا صوتُ أذانٍ بينما هُمْ في جِدال
يا لها صرخةُ وعظٍ صدَّعتْ قلبَ الجبال

* * *

قطعة

رُغْمَ ما يوجد في رِكَّة شعري منْ عُيوب

ربما تبلغ يوماً كلماتي للقلوب
ما على الشَّارع لومٌ كيفما قال وعبَّرْ
أنا يُغْنيني عن الشعر نداءُ (اللهُ أكبر)
أنا تغنيني إذا أخفقتُ في كَشْفِ النَّوايا[1]
صلواتٌ وتراتيلٌ بهاتيكَ الزَّوايا
مَعْشرُ الجانب هذا دينُهم لا يستطاعُ
عرفوا النَّفس ولما نظروا في اللهِ ضاعوا
وعبادُ الجانب الآخر عُمَّالُ مناجمْ
هم عن اللاَّهوت أغرابٌ وفي البَحْثِ أعاجمْ

***

الحب

مَنْ شهيدُ الحبِّ الذي زعموهُ ابحثوا عنه في جميع الفِجَاج
سِمَةُ العِشْقِ لا تُتَاحُ لشعبٍ دونَ شعبٍ ولا تُباحُ لراجي
في هياجِ الفؤاد للحبِّ سرٌّ كهياجِ الفَراش حولَ السِّراج
إنَّما الغزنويُّ صنوُ إيازٍ إنْ يكنْ قلبُه بغير هياج
روَّجَ الحبُّ سوقَ كلِّ حكيمٍ حاك آراءَه به للرَّواج
هي لولا تدخُّلُ الحبِّ فيها لعبةٌ من لآلىء منْ زُجاجِ
رجلُ الحبِّ لا يَذِلُّ لشيءٍ مستقلُّ الفؤاد حرُّ المزاجِ
ليس يحتاجُ أو يخافُ مليكاً إنَّما الخوف مظهرُ الاحتياجِ
تاجُ إسكندر الشَّهير متاعٌ وأنا الفَقْرُ والتدروشُ تاجي
أنا أبني الرِّجال بالفقر هذا وهو يبني مدينةً مِنْ زُجاجِ

***

---

(١) يقارن إقبال بين الإسلام والمسيحية .

رسالة نجم

بَعَثَ النَّجْمُ لي يقول : محالٌ أن يعيق الظلامُ شُعْلَةَ ذاتي
أنتَ مثلي مسافرٌ ذو لهيبٍ فأنِرْ باللَّهيب ليلَ الحياةِ

* * *

إلى جاويد[1]

لتكنْ لِقَلْبِكَ يا بنيَّ مكانةٌ في موطن الحبِّ البعيد النائي
كُنْ في أماسيه وفي أسمارِه نَغَماً يُجدِّد حرقة النُّدماءِ
وعي الفؤاد حقيقة الدُّنيا فإن وَهَبَتْك إيَّاه يدُ الرَّحمنِ
أخْرَجتَ من صَدْرِ الورود حديثها ونزعتَ صمتَ شقائقِ النُّعمانِ
إيَّاكَ يوماً أن تدينَ لصانعٍ في ليلِ أوربة يَصُوغُ زُجاجا
صُغْ من ترابِ الهند كاسكَ وافتخرْ وارفعْ بلادك فوقَ رأسك تاجا
أبنيَّ عرجونٌ بداليةٍ (أنا) أبياتُ شعري هذه أعنابي
من هذه الأعناب أعصرُ خمرةً حمراء تُلْهبُ بالحياة شبابي
أنا عيشة الأمراء لم أأبه لها أنا عِشْتُ درويشاً مع الفقراء
فادْخُلْ سجلَّ الفقر باسمك إنَّه فخرُ النَّبيِّ وسيِّدُ الأسماء

* * *

الدينُ والفلسفة

محلُّ الدِّين من يد فيلسوفٍ محلُّ الشَّمس من كَبِدِ السَّماء

---

(١) قدم إقبال هذه القصيدة بقوله : « جواب أول رسالة تلقيتها منه وكتبها بخط يده وأرسلها إلى لندن » .

لـه فـي كـل يـومٍ وهـمُ بحـثٍ ... يكـونُ مـن الصَّبـاح إلـى المسـاء
أنـا فـي ظـلِّ بيتـي أم غـريـبٌ ... وهـل سفـري بعيـدٌ أم قـريـب؟
قـد استـوحشـتُ مـن جبـلٍ ووادٍ ... فـأيـنَ تـراه يستتـر الحبيـبُ
أضعـتُ على رسـومِ القـوم عُمْـري ... أفتِّـشُ عـن بصيـرٍ بـالـرُّسـومِ
تعجَّب جئت من أين (ابن سينا) ... وساءلني ستذهب أين (رومي)
أرافـقُ فـي طـريقـي كـلَّ سـارٍ ... وأُعْطيـه نصيبـاً مـن طـريقـي[1]
ولـم أرَ فـي طـريقـي مستعـدَّاً ... يكـونُ إلـى نهـايتـه رفيقـي

***

رسالة من أوربة

الاعتصـامُ بحبـلِ الحـسِّ ضيَّعنـا ... في الليل من بحثنا عن شاطىء البصر
وَلِلْبَصيـرة بحـرٌ عـاصـفٌ حظيـت ... مـن قعـره غطسـةُ الـروميِّ بـالـدُّرَرِ
أنـا لقـافلـةِ الـرُّومـيِّ متَّبـعٌ ... وهـل لقـافلـة الـروميِّ مـن أثـر
هَـبْ عصـرنـا مثنـويّـاً آخـراً فلقـد ... جـارت رسـالـةُ أوربـة علـى البَشـر
طـريـقُ حُـرِّيـةِ الأحـرارِ مُظْلمـةٌ ... تضيئهـا شعلـةُ الـروميِّ بـالشَّـرَر

***

---

(١) شاهدٌ دخله بعض التحوير من شعر غالب الشاعر الأردوني الكبير في القرن التاسع عشر ، وله دواوين رائعة باللغة الأردوية والفارسية ، وقد سبقت ترجمته في الديوان الثالث .

جواب

على ابنِ آدمَ أن يرعى العُلى أنِفَاً ... كظبي (خوتان)[1] يرعى نبتةَ الجودي

ولا يجـوزُ لـه بـلْ لا يليـقُ بـه ... أكلُ الشَّعير ورعي العشب والعُودِ

هُـمْ يُضحُـون بـالمُقْتاتِ مـن كـلإٍ ... ويَخْضَعُـون لمـن نـاواهُـمُ الشَّـانـا

ومـن تخلَّـق بـالقـرآن مجَّـدَهُ ... وأصبَحَـتْ نفسُـه للنَّـاس قـرآنـا

* * *

على قبر نابليون

التَّوْقُ للفِعْل سيفُ الخالدين به ... تشـقُّ فـي جُبَّـة الأسـرار أقـدار

وقبـل مـولـد نـابليـون خـاضَ بـه ... إسكنـدرُ الأرضَ أمصـاراً فـأمصـار

جبـال (آلـونـد) هـدَّتها حمـاستُـه ... وأطلقَـتْ سيـلُ تيمـورلنـك تيـارا

تصيـر صـرخـةُ أهـل الله صَـرْخَتَـه ... إذا أصـرَّت علـى الإيمـان إصـرارا

والتَّـوْقُ لحظتـه لا تستمـرُّ فـإنْ ... لـم تغتنـمْ نَيْلَـه فـي وقتـه غـارا

وقـام يثـأر ليـلُ القَبْـر منـك لـه ... لا يستقـرُّ إلـى أن يـأخـذ الثَّـارا

(مسيـرنـا نحـو وادِ الصَّمْـت لـذَّتُـه ... أنْ تمـلأ القُبَّـةَ الـزرقـاء آثـارا)[2]

* * *

---

(١) خوتان : بلدة كانت تحت حكم التتر المسلمين ، تنسب إليها ظباء المسك .

(٢) شاهد من شعر حافظ الشيرازي وقد أورده إقبال بالفارسية .

موسوليني (١)

نشـاطٌ جـديـدٌ وفكـرٌ جـديـد ... يثيـرُهمـا أَمَـلُ الثَّـائـرِ
صَبَـا شعبُـه أن يـردَّ الصِّبـا ... إلـى مجـدِ أمَّتِـه الغـابـرِ
نشـاطٌ جـديـدٌ وفكـرٌ جـديـد ... وهـذان معجـزةُ القـادر
يصـوغـان مـن حجـرٍ لـؤلـؤاً ... وتـاجـاً لحـاضـره الـزَّاهـر
تـأمَّلـت رومـا وقـد جـددتْ ... بتجـديـدهـا حيـرةَ النـاظـر
فقلـتُ : أيـا ربِّ مـاذا أرى ... وهـذا الهُـدى خطـأٌ أم صـوابْ
حيـاة تُقـرُّ عيـونَ الشُّيـوخ ... وتـذكـي الطُّمـوحَ بصـدرِ الشَّبـاب
فيـا للتَّجلِّـي الـذي هـاهنـا ... ويـاللحمـاسـةِ مـاذا تُـذِيـع
وهـل تستطيـعُ رؤوس الـزُّهـور ... أنْ تتـوارى بفصـلِ الـرَّبيـع
سمـاؤُك يـا نغمـةَ الثَّـائـريـنَ ... تهـزُّ أغـانيـك أقطـارَهـا
وروحُـك تنتظـرُ العـازفيـن ... فَمَـنْ سيهيِّـجُ أوتـارَهـا

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :

نظم إقبال هذه القصيدة حوالي عام ١٩٣١م حين زار موسوليني بعد عودته من لندن وانفضاض مؤتمر المائدة المستديرة الذي دعت إليه الحكومة البريطانية للبحث في الإصلاح الدستوري في الهند ، ويبدو أنه نظمها قبل استيلاء هتلر على السلطة .

وفي قصيدة تالية يقارن إقبال بين عمل موسوليني وبين أعمال السياسيين الإنكليز بهذه العبارات :

بحجة نشر الحضارة سوَّغتم أمس تلك المذابح الجماعية والمجازر كما يسوغها اليوم موسوليني .

وعن غزو الحبشة دان إقبال مرة أخرى رئيس الحكومة الإيطالي وكتب قصيدة عنوانها : (جثة الحبشة) مايلي :

وأسفا مرآة شرف الكنيسة حطمتها روما إلى ألف كسرة أيها الحبر الأعظم ، ياله من حادث مروع (الأصل) وانظر فيما يتعلّق بغضب إقبال على موسوليني مجلة فكر وفن عدد ٣٢ ص٧٤ ـ ٧٥ .

ومنْ ذا الَّذي صاغَ هذا الجمال ... وبارَكَ بالحبِّ تِلك النُّفوس
هو الحرُّ ذو النَّظراتِ الَّتي ... بها تَقْتَدي نظراتُ الشُّموس

***

سؤال

قال درويشٌ أبيٌّ ... يسألُ الله تعالى
أنا لا أشكو إليك الفقرَ والعيشَ المحالا
لكن اللهمَّ قلْ لي ... أنتَ أرسلت الملائك ؟
ليقيموا سلطةَ الأوغاد في ظلِّ سمائكْ

***

إلى فلاح البنجاب

أيُّها الفلاحُ ما سرُّ الحياةْ ؟ ... ما الَّذي يكتُمه هذا المداز
أنت فيها منذُ آلاف السنين ... خَلْفَ محراثٍ يُغَطِّيكَ الغُبار
خمدتْ نارُك في الطِّين الَّذي ... علقتْ أكوامُه في نَعْلِكَا
قلْ لِمَنْ أذَّن في هذا الصَّباح ... أرني اللهَ الذي في فعلكَا
لم يقلْ للنَّاس حيَّ للفلاح ... إنَّما حيَّ على الفلَّاح قالْ
هو يدعوهم إلى مأدبةٍ ... أنتَ أرسلتَ لها كلَّ السِّلالْ
كيف ترضى أن يكونوا هكذا ... وهُمُ مِثْلُكَ منْ حمأةِ طينْ
إنَّ نَبْعَ الخضر لا يبلغُه ... وجِلٌ من ظلماتِ المعتدين
ليس يُجدي الهَمُّ في شيءٍ إذا ... لم تَضَعْ ذاتَك تحتَ التَّجرِبَهْ
حطِّم الأصنامَ يوماً واحداً ... لا تخفْ معبدَها أنْ تخربَهْ
حطِّم الأوثانَ أوثانَ العروق ... واهدمِ الأصنامَ أصنامَ القبائلْ

وانـضُ أغـلالَ التقـاليـد التـي تتعنَّـى خلفهـا مـن غيـرِ طـائـل
لا تقـلْ أنشـدُ فـي الـدِّيـن الخلاص وامنـحِ الكهَّـانَ روحـانيتَـهْ
إنَّ ديـنَ الله فـي الـدِّيـن الـذي يهـبُ الإنسـانَ وحـدانيتَـهْ
احْفَـظِ القلـبَ الـذي تحملُـه لا تـدَعْـه تحـتَ أقـدامِ العبـاد
الَّـذي يـزرعُـه فـي صَـدْرِهِ يجـدُ المتعـة أيـامَ الحصـاد

* * *

نادر شاه ملك الأفغان

فـي حضـور الحـقِّ كـان الحَـدَثُ الفـردُ الكبيـر
غيمـةٌ تحمـلُ فـي أعمـاقهـا روحَ الـزُّهـور
رأتِ الفـردوسَ فـي الـدَّرب فقـالـتْ للسَّمـاء[1]
آهِ مـا أجمـلَ هـذا هـاهنـا نلقـي الـدِّلاء
فـأجـابتهـا وقـالـت نتـرك الهنْـد لقـابـل
أدركـي عشبـاً جـديـداً ظمئـاً فـي أرضِ كـابـل
وعسـى نـادرُ يـأتـي ليـرى هـذي الحقـائـق
علَّـه يَغْسـلُ بـالـدَّمـع جـراحـاتِ الشَّقـائـق[2]

* * *

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : « ربما كانت الهند التي مرَّ بها نادر شاه قادماً من باريس إلى إيران لمحاربة (بجه سقا) الّذي خلع أمان الله خان عن عرشه ، هي المقصودة بهذا الفردوس ، وهم يرددون (الهند جنة نيشان) يعني إنَّ الهند تشبه الفردوس كما يقولون عن روما : إنها المدينة الخالدة » .

(٢) جراح شقائق النُّعمان هي آلام الأفغان .

حلمٌ تَتَرِيّ[1]

كـــلُّ شـــيء حـــولنـــا يَسْلُبنـــا ... مجدَنا حتى سَجاجيدُ الصَّلاة[2]
أنـــا لا أستـــاء أن تَـــرْمُقَنـــا ... شـــزراً أعيـــنُ أولادِ الطغـــاةْ
بَلِيَـــتْ أثـــوابُنـــا أجمعُهـــا ... جبَّـــةُ الشيـــخِ وجلبـــابُ الأميـــر
مـــا الَّـــذي أفعَلُـــه فـــي وحـــدتـــي ... مـــا الَّـــذي يفعـــل إيمـــانـــي الكسيـــر

* * *

وصية « خوش حال خان »[3]

يـــا أمـــة الأفغـــان شـــدُّوا بعضَكـــم ... بعضـــاً وكـــونـــوا ســـادةَ الأفغـــانِ
مـــا شـــاهَـــدَتْ عينـــاي أجملَ منظـــراً ... كجمـــال صيَّـــاديكُـــمُ الفتيـــانِ
يـــرمـــون فـــي بحـــر السَّمـــاء شِبـــاكَهـــم ... (صيدُ النُّجوم رياضةُ الشُّجعان)
أطفـــالٌ كـــوهستـــان وعـــدٌ مفعـــمٌ ... متـــواثـــبٌ فـــي قلـــبِ كـــوهستـــان
ليســـوا أقـــلَّ مـــن المغـــول شجـــاعـــةً ... ليســـوا بـــأدنـــى منهـــمُ فـــي شـــانِ
أنا (خوش حال) أحبُّ قبراً إن أمتْ ... فـــوق الجبـــالِ ممـــرَّدَ البُنيـــان
لا رِيْـــحَ تصفعُـــه بنقـــعِ خـــامـــلٍ ... مـــرَّت عليـــه خيـــول مغلستـــان
مـــا تبقَّـــى غيـــرُ جمـــرِ هـــامـــدٍ ... يتخفَّـــى تحـــتَ أكـــوامِ الـــرمـــادْ

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملُّوحي النثرية : « إذا كان إقبال يؤيد ثورة « خوش حال خان » فليس من الغريب أن يؤيِّد تطلعات التتر في تركستان إلى الاستقلال » .

(٢) في ترجمة الأستاذ الملُّوحي النثرية : « يعني أن الأتقياء ينبهوننا » .

(٣) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
من المهم أن نذكر أنَّ إقبالاً رغم نزعته للجامعة الإسلامية يمدح ثائراً على الإمبراطورية المغولية في عهد (أورنك زيب) وإقبال لا يريد فرض الوحدة من الخارج ولكنه يريد وحدة عفوية تنبثق من الداخل .

أيُّ ريحٍ فوقه لو عَصَفَتْ ... جَعَلَتْ منه حديثاً للعِبَادْ
غطَّت الرِّيحُ بُخارى كلَّها ... وسمرقندَ بليلٍ قاتم
(وتَطَلَّعْتُ لنفسي فإذا ... أنا فصٌّ ماله من خاتم)[1]
بينما أنْدُبُ حظِّي فجأةً ... زلزلتْ أرضَ سمرقندَ السَّماء
وإذا مرقد تيمورلنك قد ... بدَّدَ اللَّيلَ بسيفٍ منْ ضياء
كان نوراً أبيضاً في صُفْرةٍ ... كضياءِ الشَّمس منْ قَبْلِ الأُفول
قال لي : يا أيُّها الباكي أنا ... روحُ تيمورلنك فاسْمَعْ ما أقول
إنَّ بابَ الله مفتوحٌ وإن ... سَدَّتِ الأيامُ أبوابَ التتر
أنْتَ من أبناء طوران وإن ... فرَّقَتْ أبناءُ طورانَ البشر
فهبِ الذَّاتَ لهيباً آخراً ... وبريقاً ثانياً من مقلتِكْ
أنا حطَّمْتُ بهذين الجيوشَ ... لِمَ لا تَخْلُفني في أمَّتكْ

* * *

الحالةُ النَّفسية والظَّرف

الرَّأيُ بعد شجاعة الشجعان ... هي أولٌ وهو المحلُّ الثَّاني
إنْ كنتَ يقظاناً فأنْتَ مظفَّرٌ ... والحالُ خيرُ ذخائرِ الإنسان
كلُّ الحياة على اختلافِ ظُروفها ... ظلٌّ تؤلفه ظروفُ الحال
في كلِّ وقتٍ للمسافر جِدَّةٌ ... ومنازِلُ القَلْبِ المقيم خوالِ
كلماتُنا مع أنَّها لم تَخْتَلِفْ ... لا في معانيها ولا في لَفْظِها
في سَجْدَةِ الجنديِّ نلمح غبطةً ... ليست كسَجْدةِ ناسكٍ في وعظها
هو مسلمٌ لكن وهذا مسلمٌ ... ما زاد عن قرآنِهِ قرآنُه
للنِّسْرِ كالشَّاهين جوٌّ واحدٌ ... لكنْ لكلٍّ منهما طيرانُهُ

---

(١) تعليق إقبال : بيتٌ لشاعر مجهول ربَّما أورده الطوسي في شرح الإشارات .

أبو العلاء المعري

يقال : إنَّ المعرِّيّ لم يكن أبداً ... ليأكل اللَّحم لا يلوي على دينِ
يقالُ : كان نباتياً بمذهبه ... وليس يقتاتُ إلا من يدِ الطينِ
شوى له مرةً مستهزىءٌ حَجَلاً ... يريد يلقاهُ فيما اختار مُرْتَبِكا
لكنَّ شيخَ اللُّزوميَّات حين رأى ... شناعة السيخ ألقى فوقه وبكى
وقال : يا أيُّها المسكينُ ما اقترفَتْ ... يداك حتَّى دَخَلْتَ النَّار بالسِّيخِ
لو كنتَ بازاً لأعطَوك الدَّجاج فِدًى ... وما لجأتَ إلى شَجْبي وتوبيخي
لم تُلْقِ بالكَ للأديان إذْ وَعَظَتْ ... وللطبيعةِ إذْ قالت لطالبها
اللهُ سخَّر للأقوى خلائقَه ... وقدَّر الموت للمستضعفين بها

* * *

سينما

أيعودُ آزرُ مرةً أخرى ... ويذيعُ في السينما معانيه
أصنامُها في صَدْرِ صالتها ... عادت له بِرَواجِ ماضيه
ما كان يُنْحتُ قبلُ من صنم ... جاءت تُريدُ تبيعُه فينا
صاغت لنا الدُّنيا لنعبدَها ... وثناً وصاغَ لِعَصْرِهِ الدِّينا
ما كان فنَّاً فنُّه أبداً ... ما كان غيرَ طقوسِ أوثانِ
فتفحَّصِ السِّينما الَّتي ظَهَرَتْ ... هي في الحقيقةِ ثوبُه الثَّاني
هو صاغ أصناماً لعالمه ... ما صاغَ من طينٍ وفخَّارِ
وتصوغُ صالتُها لعالمنا ... أصنامَها من مارجِ النَّارِ
ما في زوايا المعبدَيْنِ سِوى ... هذا الرَّمادِ وذلكَ الطِّينِ
إنْ لم يلِ التَّوحيدُ أمرَهما ... لمْ يتركا شرفاً لِمِسْكِينِ

* * *

إلى جماعة « بيرزاده »[1] في البنجاب

جزتُ البلاد إلى ضريحِ مجددٍ[2] ... ووقفتُ ليلي نادباً ونهاري
وعلى التُّرابِ من الضَّريح تألُّقٌ ... غبْطَتُه في قَصْرِ السَّماء جواري
لا غروَ للأسرارِ تَلْمعُ هاهنا ... فهاهنا توارى صاحبُ الأسرار
من ردَّ جاهنكير عن يده وما ... ذلَّتْ عمامتُه لوصمةِ عارِ
هذا المكانُ من الوجود ضريحُه ... وهنا يقيمُ معلِّمُ الأحرارِ
الهندُ تعرف أرضُها وسماؤُها ... كيفَ افتداها من جحيمِ النارِ
هو أحمدُ المختار لِلْمِحَنِ الَّتي ... نالتْ شريعةَ أحمدَ المختارِ
لما وقفتُ على ضريح مُجَدِّدٍ ... دار الحديثُ عن الزَّمان الدائرِ
فشكوتُ دروشةَ الزَّمان له وما ... ألقاه من شوقي وعزمي الخائرِ
فأجاب : طرفُك ليس يبصرُ قلتُ : لا ... هو مبصرٌ لكنْ بِغَيْرِ نفوذِ
من أين ألتمس البصائر إنَّني ... أصبحت في عينيَّ كالمنبوذِ
فأجابني ذَهَبَ الذين عرفتَهم ... لم يبقَ سرٌّ في دَمِ البنجاب
لا تكتَرِثْ منهم بصاحبِ شطحةٍ ... مجنونةٍ ولو ارتدى جلبابي
أرني قلنسوةً لِدَرْويشٍ لهم ... لم ترضَ قنزعةَ العمامةِ جارا
ذهبوا مع الفقهاءِ خلف ملوكهم ... لم يتركوا لذوي القلوبِ منارا

* * *

سياسة

تقضي السياسةُ أن نُحدِّدَ أولًا ... أدوارنا في لعبة التِّيجانِ

---

(١) بيرزاده : تعني عضواً في طريقة رئيس جماعة روحية ومؤسسو هذه الطريقة كانوا دراويش أتقياء ، ولكن أولادهم انقلبوا إلى الماديِّين .

(٢) يريد به إقبال مجدِّد الألف الثاني الشيخ السَّرهندي .

لا الشاه أنت بها ولا أنا بيدقٌ هذا اختيارُ اللاَّعبِ الشَّيطانِ
إنَّ البيادق إنْ أعاقت نفسها دلَّتْ على شاهٍ بلا سُلطانِ

***

التَّجَرُّد

ليس التَّجَرُّد أن تقيمَ على الطَّوَى وقواكَ خائرةٌ وبيتُك مُعْدَمُ
فَمِنَ التَّجَرُّدِ ما يطيحُ بأهله ومِنَ التَّجَرُّدِ ما يعزُّ ويكرمُ
أنا لم أجد عند الملوك تجرُّداً أحلى وأجدى مِنْهُ في شابور
شابورُ في صنع الإمارةِ مسلمٌ فتعلَّموا الإسلامَ من شابور

***

الذَّات

لا تَرْضَيَنْ فضةً بالذَّاتِ أو ذهبا ولا تبعْ بِشَرارٍ ذلكِ اللَّهبا
إليك ما قال (فردوسي) الذي كشفتْ للفُرس أقوالُه الأستارَ والحُجُبا
(المالُ يوجدُ حتَّى حينَ تَفْقِدُه فلا تكنْ وَقِحاً إنْ رمتَه طلبا)[1]

***

فراق

النُّورُ حول الشمس يزهو إذ يفارقها صباحا
غَزَلْتُه من ذهبِ الحرير فصار للدّنيا وشاحا
والكونُ مُغْتبطٌ بما جَلَبَ الفراقَ من التَّسلِّي

---

(١) شاهد من ديوان الفردوسي بالفارسية .

متـــرنـــحٌ فـــي صمتـــه نشـــوانُ مـــن مُتَـــعِ التَّجلِّـــي
هـــل تعـــرف الأنهـــارُ والأفـــلاكُ أســـرار التشـــوُّف
هـــل يـــرتـــوونَ مـــن الفـــراق ويكتـــوونَ مـــن التلهُّـــف
أنـــا قسمتـــي قلـــقُ الفِـــراقِ ســـواه مـــالـــي مـــن مُنـــىٰ
هـــو فـــي الصَّميـــم مـــن التُّـــرابِ ومـــا التُّـــرابُ ســـوى أنـــا

***

الدَّيـــر

لا العصرُ للقولِ بالألغاز مُحْتملٌ ولا أنـــا أستطيـــع اليـــوم إلغـــازا
مضـــى الَّـــذيـــن إذا قـــالـــوا لميِّتِهـــم قـــمْ ، قـــامَ فيهـــم بـــإذنِ اللهِ واجتـــازا
فما الَّذي بعدهم في الدَّير تفعله جمـــاعـــةٌ بمـــذاقِ الـــدَّيـــر كفَّـــارُ
أخِـــدْمـــةً لقبـــورِ القـــوم مـــا بَـــرِحـــوا أمْ أنَّهـــم لقبـــورِ القـــومِ حُفَّـــارُ

***

شكوى الشَّيطان

قـــال إبليـــسُ الـــرَّجيـــمُ يشتكـــي الله تعـــالـــى
مـــا لِنَجْـــلِ الطِّيـــن هـــذا فـــوقَ نـــاري يتعـــالـــى
هُـــوَ ذا آدم بعـــدي هُـــو ذا كـــومُ التُّـــراب
واهـــنُ الـــرُّوحِ كبيـــرُ الكِـــرْشِ مـــوفـــورُ الثِّيـــابِ
عقلُـــه فـــي الأوج لكـــنْ قلبُـــه يَلْفِـــظُ روحَـــه
مـــا لقلبـــي غيـــركَ اللهـــمَّ لـــو تـــأســـو جـــروحـــه
كلَّمـــا يجعـــلُ منـــه الشـــرق معيـــارَ النَّجـــاسَـــهْ
لا تبـــالـــي حكمـــاءُ الغـــرب أنْ تـــرفـــعَ راسَـــهْ

حـــورُ فـــردوسِـــكَ تخشـــى عـــالـــم الفِـــرْدَوْسِ يُقْفِـــرْ
جئتُـــك اللهـــمَّ بـــالحُجَّـــة كـــي تـــرضـــى وتغفِـــرْ
فسَّـــرَ الغـــربُ الـــدِّيمقـــراطـــيُّ تَـــرْكـــي لِسُجـــودي
لـــم يعـــدْ مـــن بعـــده فـــي الأرض معنـــىً لـــوجـــودي

***

دمٌ في الشرايين

لا تَخْشَ نيلَ السُّوء من رجلٍ إنْ كانَ فيه دمٌ ونـامـوسُ
وارغبْ عن المحروم منْ دمه فالخيرُ مِنْ كفَّيْهِ ميؤوسُ
رجلٌ يحـرِّكُ قلبَـه دمُـهُ لا الفَقْرُ يُحْزِنُـه ولا الجودُ
إيَّاك منْ لم يَهْدِهِمْ دمُهُمْ سودُ الدِّماء عقولُهم سود

***

الطَّيران

تشكَّـتِ التينـةُ للعُصفـورِ مِـنْ معبـدِ الألـوان والعُطـورِ
قـالـتْ لـه : يـا أيُّهـا المغـرِّدُ حتَّـى متـى يكفـرُ هـذا المعْبَـدُ
لـو أنَّ لـي أجنحـةً وعَـوْنـا أغْـرَقْـتُ بـالجمـالِ هـذا الكـونـا
أجـابهـا العصفـورُ فـي وداعـهْ إجـابـةً فـي منتهـى البـراعـهْ
قـال لهـا : أيَّتُهـا المسكينـهْ كيـف تطيـريـن وأنـت تينـهْ
قـولُـك لا يَنِـمُّ عـن غبـاءِ وإنَّمـا يـدعـو إلـى الـرِّثـاءِ
أتـدَّعيـنَ الظُّلـمَ فـي عينِ العَـدلْ وأنـتِ أحـرى مـن أريـتُ بـالعَـذلْ
الطَّيـران سـرُّنـا المحجـوبُ لا يستطيـعُ نيلَـه مجـذوبُ

***

معلم المدرسة

أمامَ روحِ التَّلاميذ الَّتي اختنقت ... يبني المعلِّم هذا صرحَ فخَّار
الحقُّ ما قال كاغاني[1] وَيَسْحَرُني ... ما قال من بيت شعرٍ بذَّ أشعاري
(إذا الجدارُ أمام الشَّمس ترفعُه ... فلن ترى نورَها في باحة الدَّار)

* * *

الفيلسوف

يعرفُ الفيلسوفُ كيفَ يطيرُ ... وهو في العِلْم غايةٌ في البراعهْ
جسدٌ فارغٌ وعِلْمٌ غزيرٌ ... لو أضافوا إليه روحَ الشَّجاعهْ
يَرْسُم النِّسرُ في السَّماء دوائر ... كالشَّواهينِ والطيورِ الحرائر[2]
لا تغرَّنَّكَ المظاهر هذي ... فهو يخفي نقيضها في السَّرائر
هي تقتاتُ من إوزٍّ وبطٍّ ... وهو يقتات جيفةً وفطيسهْ
أيُّ معنىً له إذا حرموهُ ... متعة الانقضاض فوق الفريسَهْ

* * *

---

(١) كاغاني : هو شاعر فارسي من القرن السابع عشر الميلادي .

(٢) النِّسر : رمزٌ لمتوسطي الشجاعة عند إقبال فهو لا يصل إلى رتبة الشاهين لأنه يأكل من فرائس غيره ، إلا أنَّ قيمته تتجلّى في أنه مهما كان من الغربان على الجيفة فإنها لن تجد غير الانسحاب إذا لمحت قدوم النسر إلى الساحة ، وستقف ترمقه من بعيد مترقبةً ما إذا سيبقي على شيء لها أم لا .

الشَّاهين[1]

جزتُ في الأرض بلدةً بعد أخرى ... ثـمْ ألْقَيْـتُ كـلَّ شـيءٍ ورائـي
ذلـكَ العـالـمُ الـذي زعمـوه ... ليـس يقتـاتُ غيـر حَـبٍّ وماءِ
أنـا نَجْـلُ الصَّحـراء والزُّهـدُ ديني ... وهمـا فـي سجيَّتـي ودمـائـي
أجْهَـلُ الـزَّهـرَ والنَّسيـم ومـا فـي ... لـوعـةِ العنـدليـب عنـد المسـاء
ورجـالُ البُستـان تغـري ولكـنْ ... ليـس تُغْـري منشَّـأً فـي العَـراء
أيـن مجـدي إذا شقيـتُ لجـوعٍ ... وأذلَّـتْ حمـامـةٌ كبـريـائـي
بـافتـراسـي أصـونُ عـزَّة وجهـي ... وأروِّي حمـاستـي وإبـائـي
كـلُّ طيـرٍ لـه مـن الأرض عـشٌّ ... وأنـا هـاهنـا حليـف مضـائـي
كيـف يبنـي قلنـدر الطَّيـر عشـاً ... وهـو الفَـرْدُ فـي رحـابِ السَّمـاء

* * *

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
الشاهين : الطَّير المختار عند إقبال لأنه :
١ ـ لا يبني لنفسه عشاً يعني أنه درويش .
٢ ـ يطير إلى الأعالي .
٣ ـ ليس بخيلاً ، ويقنع بالزهيد .
٤ ـ لا يأكل مما يقنصه الآخرون ، يعني أنه يصون كرامته .
وينبغي أن يفهم من البند الرابع أنه رمز للمجتهد الذي يعاف التقليد كما يعاف الشاهين فريسة غيره .

المريدُ الثائر[1]

ـا فـانـوسـي الـذي أمْلِكُـه ... شمعـةٌ فـي قصعـةٍ مـن خَـزَفِ
ن أقَمْـتُ الليـل ذابـتْ وإذا ... هَبَّـتِ الـرِّيـحُ عليهـا تنطفـي
ـا الَّـذي يفعَلُـه سيِّـدنـا ... بـالمصـابيـح الَّتـي حـول المـزار
ـمَّ مـا معنـى مـزارٍ وضـريـح ... وسـتـورٍ وعطـورٍ وجِمَـار
ـا إلهـي كـمْ لنـا مـن كعبـةٍ ... كـم لنـا مـن صنـمٍ فـي الحـرمِ
وفقـاعـاتِ قبـابٍ فـوقَهـم ... جعلتنـا ضحكـةً لـلأمـم
ـيس مـا يعطـى لهـذي الأوليـاء ... مـن نـذورٍ بـاسمهـم إلَّا رَبَـا
لمـرابـي دائمـاً مختبـئٌ ... وولـيُّ القَـوْم فـي القبـر اختبـا
تـراهـم سلكـوا كـالأوليـاءْ ... إنَّمـا هـم أوليـاء بـالـوراثـهْ
ـلأ الغـربـانُ أوكـار النُّسـور ... خلَّـصَ اللهُ مـن القـومِ تـراثـهْ

* * *

آخر وصايا هارون

ـال الـرَّشيـد لابنـه يـوصيـه : هـا أنـذا احْتُضِـرْتُ
ستمـرُّ بعـدي أنـت فـي هـذا الطَّـريـق كمـا مـررتُ
ابنـيَّ إنَّ المـوتَ نـورٌ فـي عيـونِ المـؤمنيـن

---

(١) من المهم أن نشير هنا إلى أن قصيدة إقبال هذه لا تتناقض مع وقفة إقبال على ضريح سنائي ومجدِّد وقوله : سيكون ضريحي كعبة الأحرار ، وأمثال ذلك ، فهو لا يريد هنا أن يقرر عقيدةً ما ، ونستطيع أن نفهم مراد إقبال من قصيدته السابقة (الدَّير) .
وفي مناسبة أخرى يقول إقبال : إنَّ الصوفية حين تفسر تفسيراً خاطئاً وتقدم إلى الجماهير غير المتعلمة من خلال الأشعار المحببة ؛ يمكن أن تكون أكثر خطراً من حشود جنكيزخان .

والنُّـــور هـــذا لا تشـــاهِـــدُه عيـــونُ الكـــافـــريـــن

***

إلى عالمِ نفس

دعْ عنكَ فكرَكَ فالإعصار جرَّارُ ... وليس تجدي ببحر الذَّات أفكارُ
وأين أنتَ بهذا البحر من جُزُرٍ ... صغيرةٍ ما أتاها قطُّ بحَّارُ
إن لم تشقَّ كموسى ثوبَ لُجَّتها ... فحظُّك الصَّمْتُ إنْ وافاك إعصارُ

***

أوربة

مقتبسة عن نيتشة

أشباه (شيلوخ)[1] في المِرْصاد واقفةٌ ... مَكْرُ الثَّعالب يَفْري قوّةَ الأسَدِ
لا بدَّ تسقطُ أوربة إذا نَضِجَتْ ... في كيس شيلوخها المجهولِ للأبدِ

***

الأسدُ والبغلة

قالَ للبغلةِ يوماً أسدٌ ... أنتِ حقاً لكِ سرٌّ من أبوكِ
فأجابته ألا تَعْرِفُني ... أنا خالي فَخْرُ إصطبل الملوكِ

***

(١) كذا في الأصل ويبدو أنه تحريف (شيلون) وستكون الفكرة أشدَّ إغراءً إذا كنا مصيبين في رأينا . انظر مادة شيلون في قاموس الكتاب المقدس .

فكرة حرّة[1]

ـــرثـــي لعُصفـــورٍ عـــن الطَّيـــران قـــد مُنعـــا
تخفـــى وحـــاول أنْ يطيـــرَ لـــوَحْـــدِه وقعـــا
ـــاولُ أن يكـــون فـــؤادُه بيتـــاً لجبـــريـــلِ
ـــس لـــه مـــن الطَّيـــران غيـــر القَـــال والقيـــلِ
ـ العصفـــورُ بيـــن الشَّـــوك كـــالعصفـــور فـــي الجنَّـــة
ربـــك هـــذه حـــريَّـــةٌ فـــي الفكـــر أم جِنَّـــه
ـــل لمفكِّـــر حـــرٍّ أضـــلَّ الفكـــرُ وجـــدانَـــه
ـــالـــى الله أن يلهـــمَ مـــا يُبْطِـــلُ قـــرآنـــه
ـــل يهـــدم مجـــدَ الشَّعْـــب غيـــر الفِكْـــرَة الحـــرَّه
ـــذي الفكـــرة البلهـــاء سيِّـــدُهـــا (أبـــو مـــرَّه)

***

النِّسرُ والنَّملة

ـــت النَّملـــة للنِّســـر الـــذي مـــرَّ يـــومـــاً مـــا علـــى وادي النَّمـــلْ
ـــرعـــى فـــي بســـاتيـــن النُّجـــوم وأنـــا فـــي شقـــوة العيـــش المُـــذِلْ
: لكـــن أنـــا لا أبحـــث عـــن مـــؤنـــي مثلـــك فـــي هـــذا التُّـــراب
تُ ألقـــي نظـــرةً حتَّـــى ولا للسمـــواتِ التـــي فـــوق السَّحـــاب

●●●

---

[1] في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
ى أن الشاعر لا يقصد الفكرة الحرة على الإطلاق وإنما يقصد (فكرة حرة معينة) هي
ما ورد في دائرة معارف لاروس مادة LIBRE (الفكرة الحرة هي رأي المفكرين
لأحرار . والمفكر الحرّ : هو الذي يفكّر ويتحدث في حريّة في موضوع الدين) .

جہانِ تازہ کی افکارِ تازہ سے ہے نمود
کہ سنگ و خشت سے ہوتے نہیں جہاں پیدا!